

عالم الآخرة

العلامة الكبير
السيد محمد حسين الطبطبائي
صاحب تفسير الميزان

اعداد
الشيخ قاسم الهاشمي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

عالم الأخرة

للعامة الكبير
السيد محمد حسين الطباطبائي
صاحب تفسير الميزان

جمع وتحقيق
الشيخ قاسم الهاشمي

منشورات
مؤسسة الأعلی للطبوعات
بيروت - لبنان
ص ب ٧١٢٠



الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة للناس

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library

Beirut- Lebanon po. Box 7120

Tel - Fax: 450427

E-mail: alaalami@yahoo.com.



بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة

مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠

هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٤٥٠٤٢٧ / ٠١

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلقه وأشرف بريته أبي القاسم محمد وعلى آله الطاهرين.

جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: جاء رجلٌ إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتُم الدنيا وأخربتم الآخرة فتكرهون أن تُنقلوا من عمران إلى خراب، فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله وأما المسيء منكم فكالآبق يُردُّ على مولاه، قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: إعرضوا أعمالكم على الكتاب، إن الله يقول ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ قال: فقال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

بلا شك أن الإدراك والإذعان العقلي يختلف عن الإيمان والاطمئنان القلبي نحن ندرك عقلاً أو نصدق أحاديث الأنبياء تعبدًا بأن الموت - الذي هو انتقال من عالم الملك إلى عالم الملكوت - حقٌّ ولكن قلوبنا لا تحظى بشيء من هذه المعرفة ولا علم لها عن ذلك، بل إن قلوبنا قد أدخلت إلى أرض الطبيعة والنشأة المادية.

إن كل شقائنا هذا من وراء النقص في الإيمان بيوم القيامة ومن عدم الاطمئنان بعالم الآخرة، لو أننا آمنا بعالم الآخرة والحياة الأبدية عُشر اطمئناننا بالحياة الدنيوية وعيشنا لتعلقت قلوبنا بذلك العالم أكثر ولعشقناه ولسعينا قليلاً في إصلاح الطريق وترميمه، ولكن من المؤسف أن إيماننا بالآخرة قد نضب في القلب وأن يقيننا متزلزل فنضطر إلى أن نخاف من

الموت والفناء والزوال، وحينئذ فإن الإنسان بحاجة إلى معرفة أحوال عالم الآخرة ومنازلها والتفكر في أحوالها والتزود للنجاة من العقبات الكؤودة والمنازل المخوفة ليكون داؤه ودواؤه منه كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

دواؤك فيك وما تشعُرُ ودواؤك منك ولا تُبصرُ

وهذا الكتاب الذي بين يديك يحمل بين دفتيه دراسات وبحوثاً مهمة في هذا الباب على المؤمن التزود منها لرحيله إلى ذلك العالم العظيم ولأهمية موضوع هذا الكتاب وغزارته وتعمقه فيما حواه من البحث وتضمّنه من بليغ البيان وساطع البرهان ودقائق مسائل جديدة لم يجد لها سوابق الأذهان نقدمه (لقرائنا الأعزاء) بغية الاستفادة منه ليوم الجزاء والله ولي التوفيق.

الشفاعة في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَأَنقُذْ يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١) الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شؤونه، وقواه المقننة الحاكمة والمجرية مبتنية على حوائج الحياة، وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانية والمكانية، فربما بدّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضاً فإن الجرم والجنائية عندهم يستتبع العقاب، وربما بدّل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كأن يلح المحكوم الذي يرجئ عقابه على القاضي ويسترحمه أو يرتشيه فينحرف في قضائه فيجزى أي يقضي فيه بخلاف الحق أو يبعث المجرم شفيعاً يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلاً وبدلاً إذا كانت حاجة الحاكم المريد للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة إلى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعة العقاب ونحو ذلك. تلك سنة جارية وعادة دائمة بينهم، وكانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد أن الحياة الآخرة نوع حياة دنيوية يطرد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي، فيقدمون إلى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يقدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألدوا

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

معه من الجوّاري من يستأنس بها، ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وتوجد اليوم في المتاحف بين الآثار الأرضية عتائق كثيرة من هذا القبيل، ويوجد عقائد متنوعة شبيهة بتلك العقائد بين الملل الإسلامية على اختلاف ألسنتهم وألوانهم بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لوناً بعد لون، وجيلاً بعد جيل. وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية، والأقاويل الكاذبة، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات التي بين فيها أن الموطن خالٍ عن الأسباب الدنيوية، وبمعزل عن الارتباطات الطبيعية، وهذا أصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل والأوهام على طريق الإجمال، ثم فصل القول في نفي واحد واحد منها وإبطاله فقال: ﴿وَأَنقُذُوا يَوْمَئِذٍ لَّا يَخْرُجُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٥)، وقال: ﴿يَوْمَ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾^(٦)، وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾^(٧)، وقال: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَّا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصٍ﴾^(٨)، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمْ أَلْبَوْمٌ مُّتَسَلِّمُونَ﴾^(٩)، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُحْيِيوْنَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٧) سورة الدخان، الآية: ٤١.

(٨) سورة المؤمنين، الآية: ٣٣.

(٩) سورة الصافات، الآية: ٢٦.

سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(١)، وقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٢)، وقال: ﴿لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة وتأثير الوسائط والأسباب يوم القيامة هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يشبثها بعض الإثبات، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ لَا يَسْخِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(٩)، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١٠) إلى غير ذلك، فهب أن الإذن والارتضاء واحد، وهو المشيئة، وقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(١١)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) سورة المؤمن، الآية: ١٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٠١.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٣.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٨) سورة يونس، الآية: ٣.

(٩) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(١٠) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(١١) سورة مريم، الآية: ٨٧.

خَلَفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا نُنْفِخُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَوْزَكْنَاهُ^(٢)﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى^(٣)﴾، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كآيات الثلاث الأولى وبين ما يعممها لغيره تعالى بإذنه وارتضاءه ونحو ذلك، وكيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير أن بعضها تثبتها بنحو الأصالة لله وحده من غير شريك، وبعضها تثبتها لغيره بإذنه وارتضاءه، وقد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبة بين هذه الآيات كالنسبة بين الآيات النافية لعلم الغيب عن غيره، وإثباته له تعالى بالاختصاص ولغيره بارتضاءه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ^(٤)﴾، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ^(٥)﴾، وقال تعالى: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ^(٦)﴾، وكذلك الآيات الناطقة في التوفي والخلق والرزق والتأثير والحكم والملك وغير ذلك فإنها شائعة في أسلوب القرآن، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى، ثم يشبهه لنفسه، ثم يشبهه لغيره بإذنه ومشيئته، فتفيد أن الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها واستقلالها، وإنما تملكها بتمليك الله لها إياها حتى أن القرآن يثبت نوعاً من المشيئة في ما حكم فيه وقضى عليه بقضاء حتم، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ^(٧)﴾، فقد علق الخلود بالمشيئة وخاصة في خلود الجنة مع حكمه بأن العطاء غير مجذوذ، إشعاراً بأن قضاءه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده ولا يبطل سلطانه

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٦) سورة الجن، الآية: ٢٧.

(٧) سورة هود، الآية: ١٠٨.

وملكه عز سلطانه كما يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١)، وبالجملة لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده ويوجب له الفقر، ولا منع يضطره إلى حفظ ما منعه وإبطال سلطانه تعالى.

ومن هنا يظهر أن الآيات النافية للشفاعة، إن كانت ناظرة إلى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال في الملك، والآيات المثبتة تثبتها لله سبحانه بنحو الأصالة، ولغيره تعالى بإذنه وتمليكه، فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى بإذنه فلننظر ماذا يفيد كلامه في معنى الشفاعة ومتعلقها؟ وفيمن تجري؟ ومن تصح؟ ومتى تتحقق؟ وما نسبتها إلى العفو والمغفرة منه تعالى؟ ونحو ذلك في أمور:

١ - ما هي الشفاعة: الشفاعة على ما نعرف من معناها إجمالاً بالقريحة المكتسبة من الاجتماع والتعاون (وهي من الشفع مقابل الوتر كأن المستشفع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعدما كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده، لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها) من الأمور التي نستعملها لإنجاح المقاصد، ونستعين بها على حوائج الحياة، وجل الموارد التي نستعملها فيها إما مورد يقصد فيها جلب المنفعة والخير، وإما مورد يطلب فيها دفع المضرة والشر، لكن لا كل نفع وضرر فإننا لا نستشفع فيما يتضمنه الأسباب الطبيعية والحوادث الكونية من الخير والشر، والنفع والضرر، كالجوع، والعطش، والحر، والبرد، والصحة، والمرض، بل نتسبب فيها بالأسباب الطبيعية، ونتوسل إليها بوسائلها المناسبة لها كالأكل والشرب، واللبس، والاكتنان، والمداواة، وإنما نستشفع في الخيرات والشرور والمنافع والمضار التي تستدعيها أو تستتبعها أوضاع القوانين والأحكام التي وضعتها واعتبرتها وقررتها وأجرتها حكومة الاجتماع بنحو الخصوص أو العموم، ففي دائرة المولوية والعبودية، وعند كل حاكم ومحكوم أحكام من الأمر والنهي إذا عمل بها وامتلها المكلف بها استتبع ذلك تبة الثواب من مدح أو نفع، من جلّه أو مال، وإذا خالفها وتمرد منها استتبع ذلك تبة العقاب من ذم أو ضرر مادي، أو

(١) سورة هود، الآية: ١٠٧.

معنوي فإذا أمر المولى أو نهى عبده، أو كل من هو تحت سيادته وحكومته بأمر أو نهى مثلاً فامتثله كان له بذلك أجر كريم، وإن خالف كان له عقاب أو عذاب فهناك نوعان من الوضع والاعتبار: وضع الحكم ووضع تبعه الحكم، يتعين به تبعه الموافقة والمخالفة.

وعلى هذا الأصل تدور جميع الحكومات العامة بين الملل والخاصة بين كل إنسان ومن دونه.

فإذا أراد الإنسان أن ينال كمالاً وخيراً مادياً أو معنوياً وليس عنده ما يستوجب ذلك بحسب ما يعينه الاجتماع، ويعرف به لياقته، أو أراد أن يدفع عن نفسه شراً متوجهاً إليه من عقاب المخالفة وليس عنده ما يدفعه أعني الامتثال والخروج عن عهدة التكليف، وبعبارة واضحة إذا أراد نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه، أو التخلص من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجه إليه فذلك مورد الشفاعة، وعنده تؤثر لكن لا مطلقاً فإن من لا لياقة له بالنسبة إلى التلبس بكمال، أو لا رابطة له تربطها إلى المشفوع عنده أصلاً، كالعامي الأمي الذي يريد تقلد مقام علمي، أو الجاحد الطاغوي الذي لا يخضع لسيدته أصلاً لا تنفع عنده الشفاعة، وإنما الشفاعة متممة للسبب لا مستقلة في التأثير.

ثم إن تأثير الشفيع عند الحاكم المشفوع عنده لا يكون تأثيراً جزافياً من غير سبب يوجب ذلك بل لا بد أن يوسط أمراً يؤثر في الحاكم، ويوجب نيل الثواب أو التخلص من العقاب، فالشفيع لا يطلب من المولى مثلاً أن يبطل مولوية نفسه وعبودية عبده فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يرفع اليد عن حكمه وتكليفه المجعول، أو ينسخه عموماً أو في خصوص الواقعة فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يبطل قانون المجازاة عموماً أو خصوصاً فلا يعاقب لذلك رأساً، أو في خصوص الواقعة، فلا نفوذ ولا تأثير للشفيع في مولوية وعبودية، ولا في حكم ولا في جزاء حكم، بل الشفيع بعد ما يسلم جميع الجهات الثلاث المذكورة إنما يتمسك: إما بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده، وكرمه، وسخائه، وشرافه محتده، وإما بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمدلته ومسكنته وحقارته وسوء حاله، وإما بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من

قربه إلى المولى وكرامته وعلو منزلته عنده فيقول: ما أسألك إبطال مولويتك وعبوديته، ولا أن تبطل حكمك ولا أن تبطل الجزاء، بل أسألك الصفع عنه بأن لك سؤدداً ورأفة وكرماً لا تنتفع بعقابه ولا يضرك الصفع عن ذنبه أو بأنه جاهل حقير مسكين لا يعتني مثلك بشأنه ولا يهتم بأمره أو بأن لي عندك من المنزلة والكرامة ما يوجب إسعاف حاجتي في تخليصه والعفو عنه.

ومن هنا يظهر للمتأمل أن الشفيع إنما يحكم بعض العوامل المربوطة بال مورد المؤثرة في رفع العقاب مثلاً من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتب العقاب على مخالفته ونعني بالحكومة أن يخرج مورد الحكم عن كونه مورداً بإدخاله في مورد حكم آخر، فلا يشمل الحكم الأول لعدم كونه من مصاديقه لا أن يشمل فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادة كإبطال الأسباب المتضادة في الطبيعة بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، فحقيقة الشفاعة التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة دون المضادة.

ومن هنا يظهر أيضاً أن الشفاعة من مصاديق السببية فهي توسط السبب المتوسط القريب بين السبب الأول البعيد ومسببه، هذا ما يتحصل من تحليل معنى الشفاعة التي عندنا.

ثم إن الله سبحانه يمكن أن يقع مورد النظر في السببية من جهتين:

إحدهما: أنه يتبدى منه التأثير، وينتهي إليه السببية، فهو المالك للخلق والإيجاد على الإطلاق، وجميع العلل والأسباب أمور متخللة متوسطة بينه وبين غيره لنشر رحمته التي لا تنفذ ونعمته التي لا تحصى إلى خلقه وصنعه.

والثانية: أنه تعالى تفضل علينا بالدنو في حين علوه فشرع الدين ووضع فيه أحكاماً من أوامر ونواهي وغير ذلك وتبعات من الثواب والعقاب في الدار الآخرة وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين فبلغوه أحسن تبليغ وقامت بذلك الحجة وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

أما من الجهة الأولى: وهي النظر إليه من جهة التكوين فانطبق معنى

الشفاعة على شأن الأسباب والعلل الوجودية المتوسطة واضح لا يخفى، فإنها تستفيد من صفاته العليا من الرحمة والخلق والإحياء والرزق وغير ذلك إيصال أنواع النعم والفضل إلى كل مفتقر محتاج من خلقه وكلامه تعالى أيضاً يحتمل ذلك كقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١)، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٢) فإن الشفاعة في مورد التكوين ليست إلا توسط العلل والأسباب بينه وبين مسبباتها في تدبير أمرها وتنظيم وجودها وبقائها فهذه شفاعة تكوينية.

وأما من الجهة الثانية وهي النظر إليه من جهة التشريع فالذي ينبغي أن يقال أن مفهوم الشفاعة على ما سبق من التحليل يصح صدقه في مورد ولا محذور في ذلك وعليه ينطبق قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِي لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٤)، وقوله: ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٧)، فإن الآيات كما ترى تثبت الشفاعة بمعنى الشافعية لعدة من عباده من الملائكة والناس من بعد الإذن والارتضاء فهو تملك والله الملك وله الأمر فلهم أن يتمسكوا برحمته وعفوه ومغفرته وما أشبه ذلك من صفاته العليا لتشمل عبداً من عباده ساءت حاله بالمعصية، وشملته بلية العقوبة، فيخرج عن كونه مصداقاً للحكم الشامل، والجرم العامل على ما عرفت أن تأثير الشفاعة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

بنحو الحكومة دون التضاد وهو القائل عز من قائل: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١)، فله تعالى أن يبدل عملاً من عمل كما أن له أن يجعل الموجود من العمل معدوماً، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ مُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٥)، والآية في غير مورد الإيمان والتوبة قطعاً فإن الإيمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضاً كسائر الذنوب وله تكثير القليل من العمل، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنٍ﴾^(٦)، وقال: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٧) وله سبحانه أن يجعل المعدوم من العمل موجوداً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٨)، وهذا هو اللحق والإلحاق وبالجمله فله تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

نعم إنما يفعل لمصلحة مقتضية، وعلة متوسطة ولتكن من جملتها شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه والمقربين من عباده من غير جزاف ولا ظلم.

ومن هنا ظهر أن معنى الشفاعة بمعنى الشافعية، صادق بحسب الحقيقة في حقه تعالى فإن كلاً من صفاته متوسطة بينه وبين خلقه في إفاضة الجود وبذل الوجود فهو الشفيع في الحقيقة على الإطلاق. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٥) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٦) سورة القصص، الآية: ٦٥.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٨) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٩) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

شَفِيعٌ^(١)، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيُّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٢). وغيره تعالى لو كان شفيعاً فإنما هو بإذنه وتمليكه. فقد ثبت بما مر صحة تحقق الشفاعة عنده تعالى في الجملة فيما لا يوجب محذوراً لا يليق بساحة كبريائه تعالى.

٢ - إشكالات الشفاعة: قد عرفت أن الشفاعة ثابتة في الجملة لا بالجملة، وستعرف أن الكتاب وكذلك السنة لا يثبتان أزيد من ذلك، بل التأمل في معناها وحده يقضي بذلك، فإن الشفاعة كما مر يرجع بحسب المعنى إلى التوسط في السببية والتأثير، ولا معنى للإطلاق في السببية والتأثير فلا السبب يكون سبباً لكل مسبب من غير شرط ولا مسبب واحد يكون مسبباً لكل سبب على الإطلاق فإن ذلك يؤدي إلى بطلان السببية وهو باطل بالضرورة. ومن هنا اشتبه الأمر على النافين للشفاعة حيث توهموها مطلقة من غير شرط فاستشكلوا فيها بأمور وبنوا عليها بطلان هذه الحقيقة القرآنية من غير تدبر فيما يعطيه كلامه تعالى وهاك شطراً منها:

الإشكال الأول: أن رفع العقاب عن المجرم يوم القيامة بعدما أثبتته الله تعالى بالوعيد إما أن يكون عدلاً أو ظلماً. فإن كان عدلاً كان أصل الحكم المستتبع للعقاب ظلماً لا يليق بساحته تعالى وتقدس، وإن كان ظلماً كان شفاعة الأنبياء مثلاً سؤلاً للظلم منه وهو جهل لا يجوز نسبته إليهم صلوات الله عليهم.

والجواب عنه أولاً: بالنقض فإنه منقوض بالأوامر الامتحانية فرفع الحكم الامتحاني ثانياً وإثباته أولاً كلاهما من العدل، والحكمة فيها اختبار سريرة المكلف أو إظهار باطن أمره أو إخراج ما في قوته إلى الفعل، فيقال في مورد الشفاعة أيضاً: يمكن أن تكون النجاة مكتوبة لجميع المؤمنين، ثم يوضع الأحكام وما لمخالفتها من أنواع العقاب ليهلك الكافرون بكفرهم، وأما المؤمنون فيرتفع بالطاعة درجات المحسنين منهم ويبقى المسيئون فينالون بالشفاعة النجاة المكتوبة لهم ولو بالنسبة إلى بعض أنواع العذاب أو أفراده مع مقاساة البعض الآخر كأحوال البرزخ وأحوال يوم القيامة، فيكون

(١) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥١.

بذلك أصل وضع الحكم وعقابه أولاً عدلاً ورفع عقابه ثانياً عدلاً.

وثانياً: بالحل، فإن رفع العقاب أولاً بواسطة الشفاعة إنما يغير الحكم الأول فيما ذكر من العدل والظلم لو كان رفع العقاب بالشفاعة نقضاً للحكم الأول أو نقضاً للحكم باستتباع العقوبة وقد عرفت أنه ليس كذلك بل أثر الشفاعة بالحكومة لا بالمضادة فيها إخراج المجرم عن كونه مصداقاً لشمول العقاب بجعله مصداقاً لشمول الرحمة من صفات أخرى له تعالى من رحمة وعفو ومغفرة، ومنها إفضاله للشافع بالإكرام والإعظام.

الإشكال الثاني: أن سنة الله تعالى جرت على صون أفعاله من التخلف والاختلاف، فما قضى وحكم به يجره على وتيرة واحدة من غير استثناء، وعلى هذا جرت سنة الأسباب، قال تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلًا وَلَن يَجْعَلَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣)، وتحقق الشفاعة موجب للاختلاف في الفعل فإن رفع العقاب بالشفاعة عن جميع المجرمين في جميع جرائمهم موجب لنقض الفرض المحال، ولعب ينافي الحكمة قطعاً، ورفع عن بعض المجرمين أو في بعض جرائمهم وذنوبهم اختلاف في فعله تعالى وتغير وتبدل في سنته الجارية وطريقته الدائمة إذ لا فرق بين المجرمين في أن كل واحد منهم مجرم ولا بين الذنوب في أن كلاً منها ذنب وخروج عن زي العبودية فتخصيص بعضهم أو بعض من أعمالهم بالصفح والإغماض دون بعض بواسطة الشفاعة محال، وإنما تجري الشفاعة وما يشبهها في سنة هذه الحياة من ابتناء الأعمال والأفعال على الأهواء والأوهام التي ربما تقضي في الحق والباطل على السواء وتجري عن الحكمة وعن الجهالة على نسق واحد.

والجواب: أنه لا ريب في أن صراطه تعالى مستقيم وسنته واحدة لكن

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

هذه السنة الواحدة غير المختلفة ليست قائمة على أصل صفة واحدة من صفاته تعالى كصفة التشريع والحكم مثلاً حتى لا يتخلف حكم عن مورده ولا جزاء حكم عن محله قط بل هي قائمة على ما يستوجبه جميع صفاته المربوطة علت صفاته .

توضيح ذلك: أن الله سبحانه هو الواهب المفيض لكل ما في الوجود من حياة أو موت أو رزق أو نعمة أو غير ذلك . وهي أمور مختلفة لا ترتبط به سبحانه على السواء ولا لرابطة واحدة كيف كانت، فإن فيه بطلان الارتباط والسببية، فهو تعالى لا يشفي مريضاً من غير سبب موجب ومصلحة مقتضية ولا يشفيه لأنه الله المميت المنتقم شديد البطش بل لأنه الله الرؤوف الرحيم المنعم الشافي المعافي مثلاً، ولا يهلك جباراً مستكبراً من غير سبب، لأنه رؤوف رحيم به، بل لأنه الله المنتقم الشديد البطش القهار مثلاً وهكذا . والقرآن بذلك ناطق فكل حادث من الحوادث بما يشتمل عليه من جهات الوجود يسند إليه من جهة صفة أو أكثر من صفاته العليا تسبب إليه بالتلازم والائتلاف الواقع بينها والاقتضاء المستنتج من ذلك، وإن شئت قلت: كل أمر من الأمور يرتبط به تعالى من جهة ما يتضمنه من المصالح والخيرات . إذا عرفت هذا علمت أن استقامة صراطه وعدم تبدل سنته وعدم اختلاف فعله إنما هي بالنسبة إلى ما يفعله بجميع صفاته المربوطة لا بالنسبة إلى مقتضى صفة قاصرة وإن شئت قلت: بالنسبة إلى ما يتحصل من الفعل والانفعال والكسر والانكسار الواقع بين الحكم والمصالح المرتبطة بالموارد لا بالنسبة إلى مقتضى مصلحة واحدة . فلو كان هناك سبب الحكم المجعول فقط لم يتغير ولم يختلف في برّ ولا فاجر ولا مؤمن ولا كافر، لكن الأسباب كثيرة ربما استدعى توافق عدة منها غير ما يقتضيه بعضها فافهم ذلك .

فوق الشفاعة وارتفاع العقاب - وذلك أثر عدة من الأسباب كالرحمة والمغفرة والحكم والقضاء وإعطاء كل ذي حق حقه والفصل في القضاء - لا يوجب اختلافاً في السنة الجارية وضاللاً في الصراط المستقيم .

الإشكال الثالث: أن الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك أراد غيره حكم به أولاً فلا تتحقق

الشفاعة إلا بترك الإرادة ونسخها لأجل الشفيع فأما الحاكم العادل فإنه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراد أو حكم به، كأن أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العمل في خلاف ما كان يريد أو حكم به. وأما الحاكم المستبد الظالم فإنه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب عنده على العدالة، وكل من النوعين محال على الله تعالى لأن إرادته على حسب وعلمه أزلي لا يتغير.

والجواب: أن ذلك منه تعالى ليس من تغير الإرادة والعلم في شيء وإنما التغير في المراد والمعلوم، فهو سبحانه يعلم أن الإنسان الفلاني سيتحول عليه الحالات فيكون في حين كذا على حال كذا لاقتران أسباب وشرائط خاصة فيريد فيه بإرادة، ثم يكون في حين آخر على حال آخر جديد يخالف الأول لاقتران أسباب وشرائط آخر فيريد فيه بإرادة أخرى وكل يوم هو في شأن، وقد قال تعالى: ﴿يَمَحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٢)، مثال ذلك: أنا نعلم أن الهواء ستغشاه الظلمة فلا يعمل أبصارنا والحاجة إليه قائمة ثم تنجلي الظلمة بإضاءة الشمس فتتعلق إرادتنا عند إقبال الليل بالاستضاءة بالسراج وعند انقضائه بإطفائه. والعلم والإرادة غير متغيرتين وإنما تغير المعلوم والمراد، فخرجا عن كونهما منطبقاً عليه للعلم والإرادة، وليس كل علم ينطبق على كل معلوم، ولا كل إرادة تتعلق بكل مراد نعم تغير العلم والإرادة المستحيل عليه تعالى هو بطلان انطباق العلم على المعلوم والإرادة على المراد مع بقاء المعلوم والمراد على حالهما وهو الخطأ والفسخ، مثل أن ترى شبحاً فتحكم بكونه إنساناً ثم يتبين أنه فرس فيتبدل العلم، أو تريد أمراً لمصلحة ما ثم يظهر لك أن المصلحة في خلافه فتتفسخ إرادتك، وهذان غير جائزين في موده تعالى، والشفاعة ورفع العقاب بها ليس من هذا القبيل كما عرفت.

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

الإشكال الرابع: أن وعد الشفاعة منه تعالى أو تبليغها من الأنبياء ﷺ مستلزم لتجرّي الناس على المعصية وإغراء لهم على هتك محارم الله تعالى وهو منافٍ للغرض الوحيد من الدين من سوق الناس إلى العبودية والطاعة فلا بد من تأويل ما يدل عليه من الكتاب والسنة بما لا يزاحم هذا الأصل البديهي.

والجواب عنه أولاً: بالنقض بالآيات الدالة على شمول المغفرة وسعة الرحمة كقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، والآية في غير مورد التوبة بدليل استثنائه الشرك المغفور بالتوبة.

وثانياً: بالحل: فإن وعد الشفاعة أو تبليغها إنما يستلزم تجرّي الناس على المعصية وإغرائهم على التمرد والمخالفة بشرطين:

أحدهما: تعيين المجرم بنفسه ونعته أو تعيين الذنب الذي تقع فيه الشفاعة تعييناً لا يقع فيه لبس بنحو الإنجاز من غير تعليق بشرط جائز.

وثانيهما: تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته بأن تقلعه من أصله قلعاً.

فلو قيل: إن الطائفة الفلانية من الناس أو كل الناس لا يعاقبون على ما أجرموا ولا يؤاخذون فيما أذنبوا أبداً، أو قيل إن الذنب الفلاني لا عذاب عليه قط كان ذلك باطلاً من القول ولعباً بالأحكام والتكاليف المتوجهة إلى المكلفين، وأما إذا أبهم الأمر من حيث الشرطين فلم يعين أن الشفاعة في أي الذنوب وفي حق أي المذنبين أو أن العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الأوقات والأحوال، فلا تعلم نفس هل تنال الشفاعة الموعودة أو لا فلا تتجرأ على هتك محارم الله تعالى، غير أن ذلك توقظ قريحة رجائها فلا يوجب مشاهدة ما يشاهدها من ذنوبها وآثامها قنوطاً من رحمة الله، ويأساً من روح الله، مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٢) فإن الآية تدل على رفع

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

عقاب السيئات والمعاصي الصغيرة على تقدير اجتناب المعاصي الكبيرة فإذا جاز أن يقول الله سبحانه: إن اتقيتم الكبائر عفونا عن صغائرکم، فليجز أن يقال: إن تحفظتم على إيمانكم حتى أتيتموني في يوم اللقاء بإيمان سليم قبلت فيكم شفاعاة الشافعين، فإنما الشأن كل الشأن في حفظ الإيمان والمعاصي تضعف الإيمان وتقسي القلب وتجلب الشرك، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١) وقال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) وقال: ثَمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ^(٣) وربما أوجب ذلك انقلاعه عن المعاصي، وركوبه على صراط التقوى، وصيرورته من المحسنين، واستغنائه عن الشفاعاة بهذا المعنى، وهذا من أعظم الفوائد وكذا إذا عين المجرم المشفوع له أو الجرم المشفوع فيه لكن صرح بشموله على بعض جهات العذاب أو بعض أوقاته فلا يوجب تجرؤ المجرمين قطعاً.

والقرآن لم ينطق في خصوص المجرمين وفي خصوص الذنب بالتعيين ولم ينطق في رفع العقاب إلا بالبعض كما سيحيى فلا إشكال أصلاً.

الإشكال الخامس: أن العقل لو دل فإنما يدل على إمكان وقوع الشفاعاة لا على فعلية وقوعها على أن أصل دلالة ممنوع، وأما النقل فما يتضمنه القرآن لا دلالة فيه على وقوعها فإن فيها آيات دالة على نفي الشفاعاة مطلقاً كقوله: ﴿لَا بَيِّعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾^(٤)، وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعاة كقوله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٥) وأخرى تقيد النفي بمثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٦)، وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْزُقَ﴾^(٨)، ومثل هذا الاستثناء أي الاستثناء بالإذن

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٣) سورة الروم، الآية: ١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٥) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٧) سورة يونس، الآية: ٣.

(٨) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

والمشيئة معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للإشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته سبحانه كقوله تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَسْجَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾^(٢)، فليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة وأما السنة فما دلت عليه الروايات من الخصوصيات لا تعويل عليه، وأما المتيقن منها فلا يزيد على ما في الكتاب دلالة.

والجواب: أما عن الآيات النافية للشفاعة فقد عرفت أنها لا تنفي مطلق الشفاعة بل الشفاعة بغير إذن الله وارتضاءه، وأما عن الآيات النافية لمنفعة الشفاعة على زعم المستشكل فإنها تثبت الشفاعة ولا تنفيها فإن الآيات واقعة في سورة المدثر وإنما تنفي الانتفاع عن طائفة خاصة من المجرمين لا عن جميعهم، ومع ذلك فالشفاعة مضافة لا مجردة مقطوعة عن الإضافة ففرق بين أن يقول القائل: فلا تنفعهم الشفاعة وبين أن يقول: فلا تنفعهم شفاعة الشافعين فإن المصدر المضاف يشعر بوقوع الفعل في الخارج بخلاف المقطوع عن الإضافة، نص عليه الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز فقوله: شفاعة الشافعين يدل على أن شفاعة ما ستقع غير أن هؤلاء لا ينتفعون بها على أن الإتيان بصيغة الجمع في الشافعين يدل على ذلك أيضاً كقوله: ﴿كَانَتْ مِنْ أَغْنِيَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ﴾ وقوله: ﴿لَا يَتَّأَلُ عَهْدَى الظَّالِمِينَ﴾ وأمثال ذلك، ولولا ذلك لكان الإتيان بصيغة الجمع وله مدلول زائد على مدلول المفرد لغواً زائداً في الكلام فقوله: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من الآيات المثبتة للشفاعة دون النافية. وأما عن الآيات المشتملة على استثناء الإذن والارتضاء فدلالة قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ على الوقوع وهو مصدر مضاف مما لا ينبغي أن ينكره عارف بأساليب الكلام وكذا القول: بكون قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى﴾ بمعنى واحد وهو المشيئة مما لا ينبغي الإصغاء إليه، على أن الاستثناء واقع في مورد الشفاعة بوجوه مختلفة كقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ و ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٧.

وقوله: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى غير ذلك، فهب أن الإذن والارتضاء واحد وهو المشيئة، فهل يمكن التفوه بذلك في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهل المراد بهذا الاستثناء استثناء المشيئة أيضاً؟ هذا وأمثاله من المساهلة في البيان مما لا يصح نسبه إلى كلام سوقي فكيف بالكلام البليغ! وكيف بأبلغ الكلام! وأما السنة فسيأتي الكلام في دلالتها على ما يحاذي دلالة الكتاب.

الإشكال السادس: أن الآيات غير صريحة في رفع العقاب الثابت على المجرمين يوم القيامة بعد ثبوت الجرم ولزوم العقاب بل المراد بها شفاعة الأنبياء، بمعنى توسطهم بما هم أنبياء بين الناس وبين ربهم بأخذ الأحكام بالوحي وتبليغها الناس وهدايتهم وهذا المقدار كالبذر ينمو وينشأ منه ما يستقبله من الأقدار والأوصاف والأحوال فهم عليهم السلام شفعاء المؤمنين في الدنيا وشفعاؤهم في الآخرة.

والجواب: أنه لا كلام في أن ذلك من مصاديق الشفاعة إلا أن الشفاعة غير مقصورة فيه كما مر بيانه، ومن الدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) والآية في غير مورد الإيمان والتوبة، والشفاعة التي قررها المستشكل في الأنبياء إنما هي بطريق الدعوة إلى الإيمان والتوبة.

الإشكال السابع: أن طريق العقل لا يوصل إلى تحقق الشفاعة، وما نطق به القرآن آيات متشابهة تنفيها تارة وتثبتها أخرى، وربما قيدتها وربما أطلقتها، والأدب الديني الإيمان بها، وإرجاع علمها إلى الله تعالى.

والجواب عنه: أن المتشابهة من الآيات تصير بإرجاعها إلى المحكمات محكمات مثلها، وهو أمر ميسور لنا غير مضروب دونه الستر.

٣ - فيمن تجري الشفاعة: قد عرفت أن تعيين المشفوع لهم يوم القيامة لا يلائم التربية الدينية كل الملاءمة إلا أن يعرفوا بما لا يخلو عن شوب إبهام وعلى ذلك جرى بيان القرآن، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ فِي جَنَّتِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنْ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

الْمُصَلِّينَ وَلَوْ نَكَّ نَطَعُهُمُ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّى أَتَنَّا
الْيَقِينَ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ^(١)، بَيَّنَّ سبحانه فيها أن كل نفس مرهونة يوم
القيامة بما كسبت من الذنوب، مأخوذة بما أسلفت من الخطايا إلا أصحاب
اليمين فقد فكوا من الرهن وأطلقوا واستقروا في الجنان، ثم ذكر أنهم غير
محجوبين عن المجرمين الذين هم مرهونون بأعمالهم، مأخوذ عليهم في
سقر يتساءلون عنهم سلوكهم في النار، وهم يجيبون بالإشارة إلى عدة
صفات ساقطتهم إلى النار، فرَّع على هذه الصفات بأنه لم ينفعهم لذلك
شفاعة الشافعين.

ومقتضى هذا البيان كون أصحاب اليمين غير متصفين بهذه الصفات
التي يدل الكلام على كونها هي المانعة عن شمول الشفاعة، وإذا كانوا غير
متصفين بهذه الصفات المانعة عن شمول الشفاعة وقد فك الله تعالى نفوسهم
عن رهانة الذنوب والآثام دون المجرمين المحرومين عن الشفاعة،
المسلوكين في سقر فهذا الفك والإخراج إنما هو بالشفاعة فأصحاب اليمين
هم المشفعون بالشفاعة، وفي الآيات تعريف أصحاب اليمين بانتفاء
الأوصاف المذكورة عنهم، بيان ذلك: أن الآيات واقعة في سورة المدثر
وهي من السور النازلة بمكة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات
الواقعة فيها، ولم يشرع يومئذ الصلاة والزكاة بالكيفية الموجودة اليوم،
فالمراد بالصلاة في قوله ﴿قَالُوا لَرَّ نَكَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ التوجه إلى الله تعالى
بالخضوع العبودي، وبإطعام المسكين مطلق الإنفاق على المحتاج في سبيل
الله، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في الشريعة الإسلامية والخوض هو
الغور في ملامهي الحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على
الآخرة وذكر الحساب يوم الدين أو التعمق في الطعن في آيات الله المذكرة
ليوم الحساب المبشرة المنذرة، وبالتلبس بهذه الصفات الأربعة، وهي ترك
الصلاة لله وترك الإنفاق في سبيل الله والخوض وتكذيب يوم الدين ينهدم
أركان الدين، وبالتلبس بها تقوم قاعدته على ساق فإن الدين هو الاقتداء
بالهداة الطاهرين بالإعراض عن الإخلاد إلى الأرض والإقبال إلى يوم لقاء

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

الله، وهذان هما ترك الخوض وتصديق يوم الدين ولازم هذين عملاً التوجه إلى الله بالعبودية، والسعي في رفع حوائج جامعة الحياة وهذان هما الصلاة والإنفاق في سبيل الله، فالدين يتقوّم بحسب جهتي العلم والعمل بهذه الخصال الأربع، وتستلزم بقية الأركان كالتوحيد والنبوة استلزاماً هذا، فأصحاب اليمين هم الفائزون بالشفاعة، وهم المرضييون ديناً واعتقاداً سواء كانت أعمالهم مرضية غير محتاجة إلى شفاعاة يوم القيامة أو لم تكن، وهم المعنيون بالشفاعة، فالشفاعة للمذنبين من أصحاب اليمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(١)، فمن كان له ذنب باقٍ إلى يوم القيامة فهو لا محالة من أهل الكبائر، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكفراً عنه، فقد بان أن الشفاعاة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين، وقد قال النبي ﷺ: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، الحديث.

ومن جهة أخرى إنما سمي هؤلاء بأصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال وربما سموا أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشأمة، وهو من الألفاظ التي اصطلح عليها القرآن مأخوذ من إيتاء الإنسان يوم القيامة كتابه يمينه أو بشماله قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢) والمراد من إيتاء الكتاب باليمين اتباع الإمام الحق، ومن إيتائه بالشمال اتباع إمام الضلال كما قال تعالى في فرعون: ﴿بَقَدُمُ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾^(٣)، وبالجمله مرجع التسمية بأصحاب اليمين أيضاً إلى ارتضاء الدين كما أن إليه مرجع التوصيف بالصفات الأربعة المذكورة هذا.

ثم إنه تعالى قال في موضع آخر من كلامه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾^(٤)، فأثبت الشفاعاة على من ارتضى، وقد أطلق الارتضاء من غير

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

تقييد بعمل ونحوه، كما فعله في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(١) ففهمنا أن المراد به ارتضاء أنفسهم أي ارتضاء دينهم لا ارتضاء عملهم، فهذه الآية أيضاً ترجع من حيث الإفادة إلى ما ترجع إليه الآيات السابقة ثم إنه تعالى قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فهو يملك الشفاعة (أي المصدر المبني للمفعول) وليس كل مجرم بكافر محتوم له النار، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ بَآئِ رِبِّهِمْ جَحِيمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمَنْ يَأْتِيهِمْ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾^(٢)، فمن لم يكن مؤمناً قد عمل صالحاً، فهو مجرم سواء كان لم يؤمن، أو كان قد آمن ولم يعمل صالحاً، فمن المجرمين من كان على دين الحق لكنه لم يعمل صالحاً وهو الذي قد اتخذ عند الله عهداً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٣) فقولته تعالى: ﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي﴾ عهد بمعنى الأمر وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، عهد بمعنى الالتزام لاشتغال الصراط المستقيم على الهداية إلى السعادة والنجاة، فهؤلاء قوم من أهل الإيمان يدخلون النار لسوء أعمالهم، ثم ينجون منها بالشفاعة، وإلي هذا المعنى يلوح قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّكَارُ إِلَّا أَنْكَا مَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾^(٤) فهذه الآيات أيضاً ترجع إلى ما ترجع إليه الآيات السابقة، والجميع يدل على أن مورد الشفاعة أعني المشفوع لهم يوم القيامة هم الدائنون بدين الحق من أصحاب الكبائر، وهم الذين ارتضى الله دينهم.

٤ - من تقع منه الشفاعة؟ قد عرفت أن الشفاعة منها تكوينية، ومنها تشريعية، فأما الشفاعة التكوينية فجملة الأسباب الكونية شفاء عند الله بما هم وسائط بينه وبين الأشياء. وأما الشفاعة التشريعية، وهي الواقعة في عالم التكليف والمجازات، فمنها ما يستدعي في الدنيا مغفرة من الله سبحانه أو

(١) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٦١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٠.

قرباً وزلفى، فهو شفيع متوسط بينه وبين عبده. ومنه التوبة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾^(١) ويعم شموله لجميع المعاصي حتى الشرك. ومنه الإيمان قال تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٢). ومنه كل عمل صالح. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤)، والآيات فيه كثيرة، ومنه القرآن لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥). ومنه كل ما له ارتباط بعمل صالح، والمساجد والأمكنة المتبركة والأيام الشريفة ومنه الأنبياء والرسل باستغفارهم لأمتهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(٦)، ومنه الملائكة في استغفارهم للمؤمنين، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٨) ومنه المؤمنون باستغفارهم لأنفسهم وإخوانهم المؤمنين. قال تعالى حكاية عنهم ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا﴾^(٩). ومنها الشفيع يوم القيامة بالمعنى الذي عرفت فمنهم الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١٠)، فإن منهم عيسى

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٦.

(٦) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٧) سورة المؤمن، الآية: ٧.

(٨) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(١٠) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.

بن مريم وهو نبي، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، والآيتان تدلان على جواز الشفاعة من الملائكة أيضاً لأنهم قالوا إنهم بنات الله سبحانه. ومنهم الملائكة. قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^(٣). ومنهم الشهداء لدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، على تملكهم للشفاعة لشهادتهم بالحق، فكل شهيد فهو شفيع يملك الشهادة غير أن هذه الشهادة شهادة الأعمال دون الشهادة بمعنى القتل في معركة القتال، ومن هنا يظهر أن المؤمنين أيضاً من الشفعاء فإن الله عز وجل أخبر بلحوقهم بالشهداء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٤).

٥ - بماذا تتعلق الشفاعة؟ قد عرفت أن الشفاعة منها تكوينية تتعلق بكل سبب تكويني في عالم الأسباب ومنها شفاعة تشريعية متعلقة بالثواب والعقاب فمنها ما يتعلق بعقاب كل ذنب، الشرك فما دونه كشفاعة التوبة والإيمان قبل يوم القيامة ومنها ما يتعلق بتبعات بعض الذنوب كبعض الأعمال الصالحة، وأما الشفاعة المتنازع فيها وهي شفاعة الأنبياء وغيرهم يوم القيامة لرفع العقاب ممن استحقه بالحساب، فقد عرفت في الأمر الثالث أن متعلقها أهل المعاصي الكبيرة ممن يدين دين الحق وقد ارتضى الله دينه.

٦ - متى تنفع الشفاعة؟ ونعني بها أيضاً الشفاعة الرافعة للعقاب، والذي يدل عليه قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَسْعَوْنَ فِي الْأَمْشَاجِ فِي ظِلٍّ خَالِدِينَ فِيهَا هُمْ وَزَوَّجْتُهُمْ بِمِثْلِ مَا كَانُوا يَكُونُونَ فِيهَا لَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَلَا لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَعْلَمُ السِّرَّ﴾^(٥)، فالآيات كما مر دالة على توصيف من تناله الشفاعة ومن يحرم منها غير أنها تدل على أن الشفاعة إنما تنفع في

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٥) سورة المدثر، الآيات: ٣٨-٤٢.

الفك عن هذه الرهانة والإقامة والخلود في سجن النار، وأما ما يتقدم عليه من أهوال يوم القيامة وعظائمها فلا دليل على وقوع شفاعة فيها لو لم تدل الآية على انحصار الشفاعة في الخلاص من رهانة النار.

واعلم أنه يمكن أن يستفاد من هذه الآيات وقوع هذا التساؤل بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وتعلق الشفاعة بجمع من المجرمين بإخراجهم من النار، وذلك لمكان قوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ الدال على الاستقرار وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ فإن السلوك هو الإدخال لكن لا كل إدخال بل إدخال على سبيل النضد والجمع والنظم فيه معنى الاستقرار وكذا قوله: ﴿فَمَا نَعْنَهُمْ﴾، فإن ما لنفي الحال، فافهم ذلك.

وأما نشأة البرزخ وما يدل على حضور النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عند الموت وعند مساءلة القبر وإعانتهم إياه على الشدائد، فليس من الشفاعة عند الله في شيء وإنما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بإذن الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(١)، ومن هذا القبيل من وجه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِسِيمَتِهِ﴾^(٢)، فوساطة الإمام في الدعوة، وإيتاء الكتاب من قبيل الحكومة الموهوبة فافهم.

فتحصل أن المتحصل من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة باستيهاب المغفرة بالمنع عن دخول النار، أو إخراج بعض من كان داخلاً فيها باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

٧ - الشفاعة في روايات أهل البيت عليه السلام :

في أمالي الصدوق: عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عن أمير

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٤٦، ٤٨، ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

المؤمنين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال ﷺ: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل، قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا ﷺ: يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قال ﷺ: لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه.

أقول: قوله ﷺ: إنما شفاعتي، هذا المعنى رواه الفريقان بطرق متعددة عنه ﷺ.

وفي تفسير العياشي: عن سماعة بن مهران عن أبي إبراهيم ﷺ في قول الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾، قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً وتؤمر الشمس، فتركب على رؤوس العباد، ويلجمهم العرق، وتؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئاً فيأتون آدم فيستشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقول:

عليكم بمحمد خاتم البشر فيقول محمد ﷺ: أنا لها فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال له: من هذا؟ والله أعلم فيقول: محمد، فيقال: افتحوا له فإذا فتح الباب استقبل ربه فخرّ ساجداً فلا يرفع رأسه حتى يقال له: تكلم وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه ويستقبل ربه فيخرّ ساجداً فيقال له مثلها فيرفع رأسه حتى إنه ليشفع في من قد أحرق بالنار فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد ﷺ وهو قول الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

أقول: وهذا المعنى مستفيض مروي بالاختصار والتفصيل بطرق متعددة من العامة والخاصة، وفيها دلالة على كون المقام المحمود في الآية هو مقام الشفاعة، ولا ينافي ذلك كون غيره ﷺ من الأنبياء وغيرهم، جائز الشفاعة لإمكان كون شفاعتهم فرعاً لشفاعته فافتتاحها بيده ﷺ.

وفي تفسير العياشي أيضاً: عن أحدهما ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾، قال: هي الشفاعة.

وفي تفسير العياشي أيضاً: عن عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: نعم! فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد عليه السلام يومئذ؟ قال: نعم إن للمؤمنين خطايا وذنوباً وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ.

قال: وسأله رجل عن قول رسول الله: أنا سيد ولد آدم ولا فخر قال: نعم. قال: يأخذ حلقة باب الجنة فيفتحها فيخرّ ساجداً فيقول الله:

إرفع رأسك إشفع تشفع واطلب تُعط فيرفع رأسه ثم يخرّ ساجداً فيقول الله: إرفع رأسك إشفع تشفع واطلب تُعط ثم يرفع رأسه فيشفع فيشفع ويطلب فيعطى.

وفي تفسير الفرات: عن محمد بن القاسم بن عبيد معنعناً عن بشر بن شريح البصري قال: قلت لمحمد بن علي عليه السلام، أية آية في كتاب الله أرجى؟ قال: فما يقول فيها قومك؟

قلت يقولون: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قال: لكننا أهل البيت لا نقول ذلك. قال: قلت: فأى شيء تقولون فيها؟ قال: نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة.

أقول: أما كون قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الآية، مقام الشفاعة فربما ساعد عليه لفظ الآية أيضاً مضافاً إلى ما استفاض عنه عليه السلام أنه مقام الشفاعة فإن قوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْعَثَكَ﴾، يدل على أنه مقام سيناله يوم القيامة. وقوله محموداً مطلق فهو حمد غير مقيد يدل على وقوعه من جميع الناس من الأولين والآخرين، والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ففيه دلالة على وقوع فعل منه عليه السلام ينتفع به ويستفيد منه الكل فيحمده عليه، ولذلك قال عليه السلام في رواية عبيد بن زرارة السابقة: وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ، الحديث. وسيجيء بيان هذا المعنى بوجه آخر وجيه.

وأما كون قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، أرجى آية في

كتاب الله دون قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ الآية، فإن النهي عن القنوط وإن تكرر ذكره في القرآن الشريف إلا أن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْهُ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، ناظرتان إلى اليأس والقنوط من الرحمة التكوينية بشهادة المورد.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّكُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾^(٢)، إلى آخر الآيات فهو وإن كان نهياً عن القنوط من الرحمة التشريعية بقرينة قوله تعالى: ﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الظاهر في كون القنوط في الآية قنوطاً من جهة المعصية، وقد عمم سبحانه المغفرة للذنوب جميعاً من غير استثناء، ولكنه تعالى ذبله بالأمر بالتوبة والإسلام والعمل بالاتباع فذلت الآية على أن العبد المسرف على نفسه لا ينبغي له أن يقنط من روح الله ما دام يمكنه اختيار التوبة والإسلام والعمل الصالح. وبالجمله فهذه رحمة مقيدة أمر الله تعالى عباده بالتعلق بها، وليس رجاء الرحمة المقيدة كرجاء الرحمة العامة، والإعطاء والإرضاء المطلقين اللذين وعدهما الله لرسوله الذي جعله رحمة للعالمين. ذلك الوعد يطيب نفس رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

توضيح ذلك، أن الآية في مقام الامتنان وفيها وعد يختص به رسول الله ﷺ لم يعد الله سبحانه بمثله أحداً في خلقه قط، ولم يقيد الإعطاء بشيء فهو إعطاء مطلق وقد وعد الله ما يشابه ذلك فريقاً من عباده في الجنة فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(٤)، فأفاد أن لهم هناك ما هو فوق مشيئتهم، والمشيئة تتعلق

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٢.

(٥) سورة ق، الآية: ٣٠.

بكل ما يخطر ببال الإنسان من السعادة والخير، فهناك ما لا يخطر على قلب بشر كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١)، فإذا كان هذا قدر ما أعطاه الله على عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو أمر فوق القدر كما عرفت ذلك فما يعطيه لرسوله ﷺ في مقام الامتنان أوسع من ذلك وأعظم، فافهم.

فهذا شأن إعطائه تعالى، وأما شأن رضى رسول الله ﷺ فمن المعلوم أن هذا الرضا ليس هو الرضا بما قسم الله، الذي هو زميل لأمر الله. فإن الله هو المالك الغني على الإطلاق وليس للعبد إلا الفقر والحاجة فينبغي أن يرضى بقليل ما يعطيه ربه وكثيره وينبغي أن يرضى بما قضاه الله في حقه، سره ذلك أو ساءه، فإذا كان هذا هكذا فرسول الله ﷺ أعلم وأعمل، لا يريد إلا ما يريده الله في حقه لكن هذا الرضا حيث وضع في مقابل الإعطاء يفيد معنى آخر نظير إغناء الفقير بما يشكو فقده، وإرضاء الجائع بإشباعه فهو الإرضاء بالإعطاء من غير تحديد، وهذا أيضاً مما وعد الله ما يشابهه لفريق من عباده. قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ جَزَاءُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٢)، وهذا أيضاً لموقع الامتنان والاختصاص يجب أن يكون أمراً فوق ما للمؤمنين وأوسع من ذلك، وقد قال تعالى في حق رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، فصدق رأفته وكيف يرضى رسول الله ﷺ ويطيب نفسه أن يتنعم بنعيم الجنة ويرتاض في رياضه وفريق من المؤمنين متغلغلون في دركات السعير، مسجونون تحت أطباق النار وهم معترفون لله بالربوبية، ولرسوله بالرسالة، ولما جاء به بالصدق، وإنما غلبت عليهم الجهالة، ولعب بهم الشيطان، فافترفوا معاصي من غير عناد واستكبار. والواحد منا إذا راجع ما أسلفه من عمره ونظر إلى ما قصّر به في الاستكمال والإرتقاء يلوم نفسه بالتفريط في سعيه وطلبه ثم يلتفت إلى جهالة الشباب ونقص التجارب فربما خمدت نار غضبه وانكسرت

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة البينة، الآية: ٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

سورة ملامته لرحمة ناقصة أودعها الله فطرته، فما ظنك برحمة رب العالمين في موقف ليس فيه إلا جهالة إنسان ضعيف وكرامة النبي الرؤوف الرحيم ورحمة أرحم الراحمين، وقد رأى ما رأى من وبال أمره من لدن نشبت عليه أظفار المنية إلى آخر مواقف يوم القيامة؟

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية، عن أبي العباس المكي قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين يقال له أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون: شفاعة محمد، شفاعة محمد، فغضب أبو جعفر حتى تربد وجهه، ثم قال: ويحك يا أبا أيمن أغرك أن عفت بطنك وفرجك؟ أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد، ويحك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار؟ قال: ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة، ثم قال أبو جعفر: إن لرسول الله الشفاعة في أمته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم، ثم قال: وإن المؤمن ليسفع في مثل ربعة ومضر، وإن المؤمن ليسفع لخدامه ويقول: يا رب حق خدمتي كان يقيني الحر والبرد.

أقول: قوله ﷺ: ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد ﷺ ظاهره أن هذه الشفاعة العامة غير التي ذكرها بقوله: «ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار»؛ وقد مرّ نظير هذا المعنى في رواية العياشي عن عبيد بن زرارة عن الصادق ﷺ.

وفي هذا المعنى روايات أخر رَوَتْها العامة والخاصة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، حيث يفيد أن الملاك في الشفاعة هو الشهادة، فالشهداء هم الشفعاء المالكون للشفاعة. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢): الأنبياء شهداء ومحمد ﷺ شهيد عليهم، فهو ﷺ شهيد الشهداء فهو شفيع الشفعاء ولولا شهادة الشهداء لما قام للقيامة أساس.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ قال عليه السلام: لا يشفع أحد من أنبياء الله ورسله حتى يأذن الله له إلا رسول الله فإن الله أذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة، والشفاعة له وللأئمة من ولده ثم من بعد ذلك للأنبياء.

وفي الخصال: عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء.

أقول: الظاهر أن المراد بالشهداء، شهداء معركة القتال كما هو المعروف في لسان الأئمة في الأخبار لا شهداء الأعمال كما هو مصطلح القرآن.

وفي الخصال في حديث الأربعمائة: وقال عليه السلام: لنا شفاعة ولأهل مودتنا شفاعة.

أقول: وهناك روايات كثيرة في شفاعة سيدة النساء فاطمة عليها السلام وشفاعة ذريتها غير الأئمة وشفاعة المؤمنين حتى السقط منهم. ففي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط يقوم محبضاً على باب الجنة فيقال له: أدخل فيقول: لا حتى يدخل أبواي، الحديث.

وفي الخصال: عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبك دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من عاداني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أنه لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت.

وفي الكافي: عن حفص المؤذن عن أبي عبد الله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال عليه السلام: واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه لا

ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك من سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه .

وفي تفسير الفرات: بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: قال جابر لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك يا بن رسول الله حدثني بحديث في جدتك فاطمة، وساق الحديث يذكر فيه شفاعة فاطمة يوم القيامة إلى أن قال: قال أبو جعفر عليه السلام: فوالله لا يبقى في الناس إلا شك أو كافر أو منافق، فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال أبو جعفر عليه السلام هيهات هيهات منعوا ما طلبوا ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

أقول: تمسكه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ يدل على استشعار دلالة الآيات على وقوع الشفاعة وقد تمسك بها المنافقون للشفاعة على نفيتها وقد اتضح من قوله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وجه دلالتها عليها في الجملة، فلو كان المراد مجرد النفي لكان حق الكلام أن يقال: فما لنا من شفيع ولا صديق حميم، فالإتيان في حيز النفي بصيغة الجمع يدل على وقوع شفاعة من جماعة وعدم نفعها في حقهم، مضافاً إلى أن قوله تعالى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾ المسوق للتحسر تمنّ واقع في حيز التحسر ومن المعلوم أن التمني في حيز التحسر إنما يكون بما يتضمن ما فقده ويشتمل على ما تحسر عليه فيكون معنى قولهم: فلو أن لنا كربة، معناه يا ليتنا نردّ فنكون من المؤمنين حتى ننال الشفاعة من الشافعين كما نالها المؤمنون فالآية من الآيات الدالة على وقوع الشفاعة.

وفي التوحيد: عن الكاظم عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل، قيل: يا بن رسول الله كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ومن ارتكب الكبيرة لا يكون مرتضى؟ فقال عليه السلام: ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه، وقال النبي صلى الله عليه وآله: كفى بالندم توبة، وقال عليه السلام من سرته حسنة وساءته سيئة فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً والله تعالى

ذكره يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فقليل له: يابن رسول الله وكيف لا يكون مؤمناً من لا يندم على ذنب يرتكبه فقال: ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب عليه إلا ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً والمصر لا يغفر له، لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم وقد قال النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وأما قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات والسيئات، فمن ارتضى دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفة بعاقبته في القيامة.

أقول: قوله ﷺ: وكان ظالماً فيه تعريف الظالم يوم القيامة وإشارة إلى ما عرّفه به القرآن حث يقول: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾^(١) وهو الذي لا يعتقد بيوم المجازاة فلا يتأسف على فوت أوامر الله تعالى ولا يسوؤه اقتحام محارمه إما بجحد جميع المعارف الحقّة والتعاليم الدينية وإما بالاستهانة لأمرها وعدم الاعتناء بالجزاء والدين يوم الجزاء والدين فيكون قوله به استهزاء بأمره وتكديباً له، وقوله ﷺ: فتكون تائباً مستحقاً للشفاعة، أي راجعاً إلى الله ذا دين مرضي مستحقاً للشفاعة وأما التوبة المصطلحة فهي بنفسها شفيعة منجية، وقوله ﷺ: وقد قال النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار الخ، تمسكه ﷺ به من جهة أن الإصرار وهو عدم الانقباض بالذنب والندم عليه يخرج الذنب عن شأنه الذي له إلى شأن آخر وهو تكذيب المعاد والظلم بآيات الله فلا يغفر لأن الذنب إنما يغفر إما بتوبة أو بشفاعة متوقفة على دين مرضي ولا توبة هناك ولا دين مرضي.

ونظير هذا المعنى واقع في رواية العلل عن أبي إسحاق الليثي قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر ﷺ: يابن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة وكمل، هل يزني؟ قال: اللهم لا، قلت: فيلوط؟ قال: اللهم لا، قلت: فيسرق؟ قال: لا، قلت: فيشرب

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٤ - ٤٥.

الخمير؟ قال: لا، قلت: فيأتي بكبيرة من هذه الكبائر أو فاحشة من هذه الفواحش؟ قال: لا، قلت: فيذنب ذنباً؟ قال: نعم وهو مؤمنٌ مذبٌ مسلم، قلت: وما معنى مسلم؟ قال: المسلم لا يلزمه ولا يصيرُ عليه... الحديث.

وفي الخصال: بأسانيد عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة تجلّى الله عز وجل لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثم يغفر الله له لا يطلع الله له ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ ويستتر عليه أن يقف عليه أحد، ثم يقول لسيئاته: كوني حسنة.

وعن صحيح مسلم مرفوعاً إلى أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحوها عنه كبارها فيقال: عملت يوم كذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول: إن لي ذنباً ما أراها ههنا، قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه.

وفي الأمالي: عن الصادق عليه السلام: إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته.

أقول: والروايات الثلاث الأخيرة من المطلقات والأخبار الدالة على وقوع شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة من طرق أئمة أهل البيت وكذا من طرق أهل السنة والجماعة بالغة حد التواتر، وهي من حيث المجموع إنما تدل على معنى واحد وهو الشفاعة على المذنبين من أهل الإيمان إما بالتخليص من دخول النار وإما بالإخراج منها بعد الدخول فيها والتميقن منها عدم خلود المذنبين من أهل الإيمان في النار وقد عرفت أن القرآن أيضاً لا يدل على أزيد من ذلك.

٨ - فلسفة الشفاعة:

البراهين العقلية وإن قصرت عن إعطاء التفاصيل الواردة كتاباً وسنة في المعاد لعدم نيلها المقدمات المتوسطة في الاستنتاج على ما ذكره الشيخ ابن سينا لكنها تنال ما يستقبله الإنسان من كمالاته العقلية والمثالية في صراطي السعادة والشقاوة بعد مفارقة نفسه بدنه من جهة التجرد العقلي والمثالي الناهض عليهما البرهان.

فالإنسان في بادئ أمره يحصل له من كل فعل يفعله هيئة نفسانية وحال من أحوال السعادة والشقاوة ونعني بالسعادة ما هو خير له من حيث أنه إنسان، وبالشقاوة ما يقابل ذلك، ثم تصير تلك الأحوال بتكررها ملكة راسخة، ثم يتحصّل منها صورة سعيدة أو شقية للنفس تكون مبدأً لهيئات وصور نفسانية، فإن كانت سعيدة فأثارها وجودية ملائمة للصورة الجديدة، وللنفس التي هي بمنزلة المادة القابلة لها وإن كانت شقية فأثارها أمور عدمية ترجع بالتحليل إلى الفقدان والشر، فالنفس السعيدة تلتذ بأثارها بما هي إنسان، وتلتذ بها بما هي إنسان سعيد بالفعل، والنفس الشقية وإن كانت أثارها مستأنسة لها وملائمة بما أنها مبدأ لها لكنها تتألم بها بما أنها إنسان، هذا بالنسبة إلى النفوس الكاملة في جانب السعادة والشقاوة، أعني الإنسان السعيد ذاتاً والصالح عملاً والإنسان الشقي ذاتاً والطالح عملاً، وأما الناقصة في سعادتها وشقاوتها فالإنسان السعيد ذاتاً الشقي فعلاً بمعنى أن يكون ذاته ذات صورة سعيدة بالاعتقاد الحق الثابت غير أن في نفسه هيئات شقية رديئة من الذنوب والآثام اكتسبتها حين تعلقها بالبدن الدنيوي وارتضاعها من ثدي الاختيار، فهي أمور قسرية غير ملائمة لذاته، وقد أُقيم البرهان على أن القسر لا يدوم، فهذه النفس سترزق التطهّر منها في برزخ أو قيامة على حسب قوة رسوخها في النفس، وكذلك الأمر في ما للنفس الشقية من الهيئات العارضة السعيدة فإنها ستسلب عنها وتزول سريعاً أو بطيئاً، وأما النفس التي لم تتم لها فعلية السعادة والشقاوة في الحياة الدنيا حتى فارقت البدن مستضعفة ناقصة فهي من المرجئين لأمر الله عز وجل، فهذا ما يقتضيه البراهين في المجازاة بالثواب والعقاب المقتضية لكونها من لوازم الأعمال ونتائجها، لوجوب رجوع الروابط الوضعية الاعتبارية بالآخرة إلى روابط حقيقية وجودية هذا.

ثم إن البراهين قائمة على أن الكمال الوجودي مختلف بحسب مراتب الكمال والنقص والشدة والضعف وهو التشكيك خاصة في النور المجرد فلهذه النفوس مراتب مختلفة في القرب والبعد من مبدأ الكمال ومنتهاه في سيرها الارتقائي وعودها إلى ما بدأت منها وهي بعضها فوق بعض، وهذه شأن العلل الفاعلة (بمعنى ما به) ووسائط الفيض، فلبعض النفوس وهي

النفوس الثامة الكاملة كنفوس الأنبياء ﷺ وخاصة من هو في أرقى درجات الكمال والفعلية وساطة في زوال الهيئات الشقية الردية القسرية من نفوس الضعفاء، ومن دونهم من السعداء إذا لزمته قسراً، وهذه هي الشفاعة الخاصة بأصحاب الذنوب.

٩ - الشفاعة من نظرة اجتماعية:

الذي تعطيه أصول الاجتماع أن المجتمع الإنساني لا يقدر على حفظ حياته وإدامة وجوده إلا بقوانين موضوعة معتبرة بينهم، لها النظارة في حاله، والحكومة في أعمال الأفراد وشؤونهم، تنشأ عن فطرة المجتمع وغريزة الأفراد المجتمعين بحسب الشرائط الموجودة، فتسير بهدايتها جميع طبقات الاجتماع كل على حسب ما يلائم شأنه ويناسب موقعه فيسير المجتمع بذلك سيراً حثيثاً ويتولد بتألف أطرافه وتفاعل متفرقاته العدل الاجتماعي وهي موضوعة على مصالح ومنافع مادية يحتاج إليها ارتقاء الاجتماع المادي، وعلى كمالات معنوية كالأخلاق الحسنة الفاضلة التي يدعو إليها صلاح الاجتماع كالصدق في القول والوفاء بالعهد والنصح وغير ذلك، وحيث كانت القوانين والأحكام وضعية غير حقيقية احتاجت إلى تميم تأثيرها، بوضع أحكام مقررة أخرى في المجازاة لتكون هي الحافظة لحماها عن تعدي الأفراد المتهوسين وتساهل آخرين، ولذلك كلما قويت حكومة (أي حكومة كانت) على إجراء مقررات الجزاء لم يتوقف المجتمع في سيره ولا ضلّ سائره عن طريقه ومقصده، وكلما ضعفت اشتدّ الهرج والمرج في داخله وانحرف عن مسيره فمن التعاليم اللازمة تثبيتها في الاجتماع تلقين أمر الجزاء، وإيجاد الإيمان به في نفوس الأفراد، ومن الواجب الاحتراز من أن يدخل في نفوسهم رجاء التخلص عن حكم الجزاء، وتبعة المخالفة والعصيان، بشفاعة أو رشوة أو شيء من الحيل والدسائس المهلكة، ولذلك نعموا على الديانة المسيحية ما وقع فيها أن المسيح فدى الناس في معاصيهم بصلبه، فالناس يتكلمون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ويكون الدين إذ ذاك هادماً للإنسانية، مؤخراً للمدنية، راجعاً بالإنسان القهقري كما قيل. وإن الإحصاء يدل من أن المتدينين أكثر كذباً وأبعد من العدل من غيرهم وليس ذلك إلا أنهم يتكلمون بحقية دينهم، وادخار الشفاعة في حقهم

ليوم القيامة، فلا يبالون ما يعملون بخلاف غيرهم فإنهم خلوا وغرائزهم وفطرتهم ولم يبطل حكمها بما بطل به في المتدينين فحكمت بقبح التخلف عما يخالف حكم الإنسانية والمدنية الفاضلة.

وبذلك عوّل جمعٌ من الباحثين في تأويل ما ورد في خصوص الشفاعة في الإسلام وقد نطق به الكتاب وتواترت عليه السّنة.

ولعمري لا الإسلام يثبت الشفاعة بالمعنى الذي فسروها به، ولا الشفاعة التي تثبتها تؤثر الأثر الذي زعموه لها، فمن الواجب أن يحصل الباحث في المعارف الدينية وتطبيق ما شرعه الإسلام على هيكل الاجتماع الصالح والمدنية الفاضلة تمام ما رامه الإسلام من الأصول والقوانين المنطبقة على الاجتماع كيفية ذلك التطبيق ثم يحصل ما هي الشفاعة الموعودة وما هو محلها وموقعها بين المعارف التي جاء بها.

فيعلم أولاً: أن الذي يثبت القرآن من الشفاعة هو أن المؤمنين لا يخلدون في النار يوم القيامة بشرط أن يلاقوا ربهم بالإيمان المرضي والدين الحق فهو وعد وعده القرآن مشروطاً ثم نطق بأن الإيمان من حيث بقاءه على خطر عظيم من جهة الذنوب ولا سيما الكبائر ولا سيما الإدمان منها والإصرار فيها، فهو شفا جرف الهلاك الدائم، وبذلك يتحصّل رجاء النجاة وخوف الهلاك، ويسلك نفس المؤمن بين الخوف والرجاء فيعبد ربه رغبة ورهبة، ويسير في حياته سيراً معتدلاً غير منحرف لا إلى خمود القنوط، ولا إلى كسل الوثوق.

وثانياً: أن الإسلام قد وضع من القوانين الاجتماعية من مادياتها ومعنوياتها ما يستوعب جميع الحركات والسكنات الفردية والاجتماعية، ثم اعتبر لكل مادة من موادها ما هو المناسب له من التبعة والجزاء من دية وحد وتعزير إلى أن ينتهي إلى تحريم مزايا الاجتماع واللوم والذم والتقيح، ثم تحفّظ على ذلك بعد تحكيم حكومة أولياء الأمر بتسلط الكل على الكل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم أحى ذلك بنفخ روح الدعوة الدينية المضمنة بالإنذار والتبشير بالعقاب والثواب في الآخرة، وبنى أساس تربيته بتلقين معارف المبدأ والمعاد على هذا الترتيب.

فهذا ما يرومه الإسلام بتعليمه، جاء به النبي ﷺ وصدقته التجارب
الواقع في عهده وعهد من يليه حتى لعبت به أيدي الولاة في السلطنة الأموية
ومن شايعهم في استبدادهم ولعبهم بأحكام الدين وإبطالهم الحدود
والسياسات الدينية حتى آل الأمر إلى ما آل إليه اليوم وارتفعت أعلام الحرية
وظهرت المدنية الغربية ولم يبق من الدين بين المسلمين إلا كصباة في إناء
فهذا الضعف البين في سياسة الدين وارتجاع المسلمين القهقري هو الموجب
لتنزلهم في الفضائل والفواضل وانحطاطهم في الأخلاق والآداب الشريفة
وانغمارهم في الملاهي والشهوات وخوضهم في الفواحش والمنكرات، هو
الذي أجراهم على انتهاك كل حرمة واقتراف كل ما يستشنع حتى غير
المتحل بالدين لا ما يتخيله المعترض من استناد الفساد إلى بعض المعارف
الدينية التي لا غاية لها وفيها إلا سعادة الإنسان في آجله وعاجله والله
المعين، والإحصاء الذي ذكروها إنما وقع على جمعية المتدينين وليس
عليهم قيم ولا حافظ قوي وعلى جمعية غير المتحلين، والتعليم والتربية
الاجتماعيان قيما عليهم حافظان لصلاحهم الاجتماعي فلا يفيد فيما أراده
شيئا^(١).

(١) انظر الميزان المجلد ١ ص ١٥٤.

أحكام الأعمال والجزاء عليها

١ - الإحباط:

من أحكام الأعمال: أن من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة كالارتداد. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَبِمَتَ وَهُوَ كَاِفِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، وكالكفر بآيات الله والعناد فيها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(١).

وكذا من الطاعات ما يكفر سيئات الدنيا والآخرة كالإسلام والتوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾^(٣).

وأيضاً: من المعاصي ما يحبط بعض الحسنات كالمشاقة مع الرسول، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ٥٣، ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٣.

فإن المقابلة بين الآيتين تقضي بأن يكون الأمر بالإطاعة في معنى النهي عن المشاقة، وإبطال العمل هو الإحباط، وكرفع الصوت فوق صوت النبي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

وكذا من الطاعات ما يكفر بعض السيئات كالصلوات المفروضة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢).

وكالحج قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٣)، وكاجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٥).

وأيضاً: من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل، قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾^(٦).

وقد ورد هذا المعنى في الغيبة والبهتان وغيرهما في الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام، وكذا من الطاعات ما ينقل السيئات إلى الغير كما سيجيء.

وأيضاً: من المعاصي ما ينقل مثل سيئات الغير إلى الإنسان لا عينها، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٨).

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٥) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٢٩.

(٧) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٨) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

وكذا من الطاعات ما ينقل مثل حسنات الغير إلى الإنسان لا عينها قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾^(١).

وأيضاً من المعاصي ما يوجب تضاعف العذاب، قال تعالى: ﴿إِذَا لَذِقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^(٣).

وكذا من الطاعات ما يوجب الضعف كالإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(٤) ومثله ما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٥). وما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيَكُمْ كَفَالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَشْرُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(٦)، على أن الحسنة مضاعفة عند الله مطلقاً، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٧).

وأيضاً: من الحسنات ما يبدل السيئات إلى الحسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٨).

وأيضاً: من الحسنات ما يوجب لحوق مثلها بالغير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٩).

ويمكن الحصول على مثلها في السيئات كظلم أيتام الناس حيث يوجب نزول مثله على الأيتام من نسل الظالم، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٤.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٨) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٩) سورة الطور، الآية: ٢١.

لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ^(١).

وأيضاً: من الحسنات ما يدفع سيئات صاحبها إلى غيره، ويجذب حسنات الغير إليه كما أن من السيئات ما يدفع حسنات صاحبها إلى الغير، ويجذب سيئاته إليه، وهذا من عجيب الأمر في باب الجزاء والاستحقاق.

نتيجة الحكم الأول:

وبالتأمل في الآيات السابقة والتدبر فيها يظهر:

أن في الأعمال من حيث المجازاة أي من حيث تأثيرها في السعادة والشقاوة نظاماً يخالف النظام الموجود بينها من حيث طبعها في هذا العالم، وذلك أن فعل الأكل مثلاً من حيث إنه مجموع حركات جسمانية فعلية وانفعالية، أي يقوم بفاعله نحو قيام يعطيه الشبع مثلاً ولا يتخطاه إلى غيره، ولا ينتقل عنه إلى شخص آخر دونه، وكذا يقوم نحو قيام بالغذاء المأكول يستتبع تبدله من صورة إلى صورة أخرى مثلاً، ولا يتعداه إلى غيره ولا يتبدل بغيره ولا ينقلب عن هويته وذاته وكذا إذا ضرب زيد عمراً كانت الحركة الخاصة ضرباً لا غير وكان زيد ضارباً لا غير وكان عمر مضروباً لا غير إلى غير ذلك من الأمثلة، ولكن هذه الأفعال بحسب نشأة السعادة والشقاوة على غير هذه الأحكام كما قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَفْضِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾^(٥).

وبالجملة: عالم المجازاة ربما بدّل الفعل من غير نفسه، وربما نقل

(١) سورة النساء، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٤.

(٥) سورة المؤمن، الآية: ٧٤.

الفعل وأسنده إلى غير فاعله، وربما أعطى للفعل غير حكمه إلى غير ذلك من الآثار المخالفة لنظام هذا العالم الجسماني.

توهم:

ولا ينبغي لمتوهم أن يتوهم أن هذا يبطل حجة العقول في مورد الأعمال وآثارها ويفسد الحكم العقلي فلا يستقر شيء منه على شيء وذلك أنا نرى أن الله سبحانه وتعالى (فيما حكاه في كتابه) يستدل هو أو ملائكته الموكلة على الأمور على المجرمين في حال الموت والبرزخ وكذا في القيامة والنار والجنة بحجج عقلية تعرفها العقول.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ وَأُشْرَفَتْ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(١) وقد تكرر في القرآن الإخبار بأن الله سيحكم بين الناس بالحق يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وكفى في هذا الباب ما حكاه الله عن الشيطان بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) الآية.

ومن هنا نعلم: أن حجة العقول غير باطلة في نشأة الأعمال ودار الجزاء مع ما بين النشاطين أعني نشأة الطبيعة ونشأة الجزاء من الاختلاف البين على ما أشرنا إليه.

الجواب عنه:

والذي يحل به هذه العقدة، أن الله تكلم مع الناس في دعوتهم وإرشادهم بلسان أنفسهم وجرى في مخاطباته إياهم وبياناته لهم مجرى العقول الاجتماعية، وتمسك بالأصول والقوانين الدائرة في عالم العبودية

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

والمولوية، فعّد نفسه مولئ والناس عبيداً والأنبياء رسلاً إليهم، وواصلهم بالأمر والنهي والبعث والزجر والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد وسائر ما يلحق بهذا الطريق من عذاب ومغفرة وغير ذلك.

وهذه طريقة القرآن الكريم في تكليمه للناس، فهو يصرّح أن الأمر أعظم مما يتوهمه الناس أو يخيل إليهم غير أنه شيء لا تسعه حواصلهم وحقائق لا تحيط بها أفهامهم ولذلك نزل منزلة قريبة من أفق إدراكهم لينالوا ما شاء الله أن ينالوه من تأويل هذا الكتاب العزيز كما قال تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

فالقرآن الكريم يعتمد في خصوصيات ما نبأ به من أحكام الجزاء وما يرتبط بها على الأحكام الكلية العقلانية الدائرة بين العقلاء المبتنية على المصالح والمفاسد، ومن لطيف الأمر: أن هذه الحقائق المستورة عن سطح الأفهام العادية قابلة التطبيق على الأحكام العقلانية المذكورة ممكنة التوجيه بها، فإن العقل العملي الاجتماعي لا يأبئ مثلاً، التشديد على بعض المفسدين بمؤاخذته بجميع ما يترتب على عمله من المضار والمفاسد الاجتماعية كأن يؤاخذ القاتل بجميع الحقوق الاجتماعية الفاتية بسبب موت المقتول، أو يؤاخذ من سنّ سيئة بجميع المخالفات الجارية على وفق سنته ففي المثال الأول يقضي بأن المعاصي التي كانت ترى ظاهراً أفعالاً للمقتول فاعلها هو القاتل بحسب الاعتبار العقلاني، وفي المثال الثاني بأن السيئات التي عملها التابعون لتلك السنة السيئة أفعال فعلها أول من سن تلك السنة المتبوعة في عين أنها أفعال للتابعين فيها، فهي أفعال لهم معاً فلذلك يؤاخذ بها كما يؤاخذون.

وكذلك يمكن أن يقضي بكون الفاعل لفعل غير فاعل له، أو الفعل المعين المحدود غير ذلك الفعل أو حسنات الغير حسنات للإنسان، أو للإنسان أمثال تلك الحسنات، كل ذلك باقتضاء من المصالح الموجودة فالقرآن الكريم يعلل هذه الأحكام العجيبة الموجودة في الجزاء كمجازاة

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.

الإنسان بفعل غيره خيراً أو شراً، وإسناد الفعل إلى غير فاعله، وجعل الفعل غير نفسه، إلى غير ذلك ويوضحها بالقوانين العقلانية الموجودة في ظرف الاجتماع وفي سطح الأفهام العامة، وإن كانت بحسب الحقيقة ذات نظام غير نظام الحس، وكانت الأحكام الاجتماعية العقلانية محصورة مقصورة على الحياة الدنيا وسينكشف على الإنسان ما هو مستور عنه اليوم يوم تبلى السرائر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ (إلى أن قال) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾^(٢) وبهذا الذي ذكرناه يرتفع الاختلاف المترائي بين هذه الآيات المشتملة على هذه الأحكام العجيبة وبين أمثال قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدْ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَىٰ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِنَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾^(٧) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وذلك أن الآيات السابقة تحكم بأن معاصي المقتول المظلوم إنما فعلها القاتل الظالم فمؤاخذته له بفعل نفسه لا بفعل غيره، وكذا تحكم بأن من اتبع سنة سيئة ففعل معصية على الاتباع لم يفعلها التابع وحده بل فعله هو وفعله المتبوع، فالمعصية معصيتان، وكذا تحكم بأن من أعان ظالماً على ظلمه أو اقتدى بإمام ضلال فهو شريك معصيته وفاعل كمثلته، فهؤلاء وأمثالهم من مصاديق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدْ وَازِرَةً وَزِدْ أُخْرَىٰ﴾ الآية، ونظائرها

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

(٢) سورة يونس، الآيات: ٣٧ - ٣٩.

(٣) سورة الزلزال، الآية: ٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٦) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٧) سورة يونس، الآية: ٤٤.

من حيث الجزاء، لا أنهم خارجون عن حكمها بالاستثناء أو بالتقضى.

والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

فقوله: وهو أعلم بما يفعلون يدل أو يشعر بأن توفية كل نفس ما عملت إنما هي على حسب ما يعلمه الله سبحانه ويحاسبه من أفعالهم لا على حسب ما يحاسبونه من عند أنفسهم من غير علم ولا عقل، فإن الله قد سلب عنهم العقل في الدنيا حيث قال تعالى حكاية عن أصحاب السعير: ﴿لَوْ كُنَّا سَمْعٌ أَوْ نَفْعٌ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢)، وفي الآخرة أيضاً حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَلْجَأُ إِلَى الْوَقْدَةِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأُفُقِ﴾^(٤)، وقال تعالى في تصديق هذا السلب: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأُولَهُنَّ رِيسًا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِنَّ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥) فأثبت لكل من المتبوعين وتابعيهم الضعف من العذاب، أما المتبوعين فلضلالهم وإضلالهم، وأما التابعين فلضلالهم وإقامتهم أمر متبوعهم بالتبعية ثم ذكر أنهم جميعاً لا يعلمون.

شبهة:

فإن قلت: ظاهر هذه الآيات التي تسلب العلم عن المعجزين في الدنيا والآخرة ينافي آيات أخر تثبت لهم العلم كقوله تعالى: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ ءَايَتُهُمْ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا يُقَوِّرُ يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، وكالآيات التي تحتج عليهم ولا معنى للاحتجاج على من لا علم له ولا فقه للاستدلال على أن نفس هذه الآيات مشتملة على أقسام من الاحتجاج عليهم في الآخرة ولا مناص من إثبات العقل والإدراك لهم فيه، على أن ههنا آيات تثبت لهم العلم واليقين في

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الهزعة، الآية: ٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣.

خصوص الآخرة كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(٢).

الجواب:

قلت: نفي العلم عنهم في الدنيا نفي اتباع ما عندهم من العلم، ومعنى نفيه عنهم في الآخرة لزوم ما جروا عليه من الجهالة في الدنيا لهم حين البعث وعدم انفكاك الأعمال عنهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَائِفَةٌ فِي عُتُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلَيْتَ بَيْتِي وَيَبْنِي بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

جواب عن إشكال:

وقد أجاب الإمام الغزالي عن إشكال انتقال الأعمال بجواب آخر ذكره في بعض رسائله فقال ما حاصله:

إن نقل الحسنات والسيئات بسبب الظلم واقع في الدنيا وقت جريان الظلم لكن ينكشف ذلك يوم القيامة، فيرى الظالم مثلاً طاعات نفسه في ديوان غيره ولم تنقل في ذلك الوقت بل في الدنيا كما قال تعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ إِلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارُ﴾ أخبر عن ثبوت الملك له تعالى في الآخرة وهو لم يحدث له تعالى هناك بل هو مالك دائماً إلا أن حقيقته لا تنكشف لكافة الخلائق إلا يوم القيامة، وما لا يعلمه الإنسان فليس بموجود له وإن كان موجوداً في نفسه، فإذا علمه صار موجوداً له كأنه وجد الآن في حقه.

فقد سقط بهذا قول من قال: إن المعدوم كيف ينقل والعرض كيف ينقل؟ فنقول: المنقول ثواب الطاعة لا نفس الطاعة، ولكن لما كانت الطاعة

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

تراد لثوابها عبّر عن نقل أثرها بنقل نفسها، وأثر الطاعة ليس أمراً خارجاً عن الإنسان لاحقاً به حتى يشكل بأن نقله في الدنيا من قبيل انتقال العرض المحال، ونقله في الآخرة بعد انعدامه من قبيل إعادة المعدوم الممتنعة، وإن كان جوهرأ فما هذا الجوهر؟ بل المراد بأثر الطاعة أثره في القلب بالتنوير فإن للطاعات تأثيراً في القلب بالتنوير وللمعاصي تأثيراً فيه بالقسوة والظلمة، وبأنوار الطاعة تستحكم مناسبة القلب مع عالم النور والمعرفة والمشاهدة، وبالظلم والقسوة يستعد القلب للحجاب والبعد، وبين آثار الطاعات والمعاصي تعاقب وتضاد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾ وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» والآثام تمحيصات للذنوب، ولذلك قال ﷺ: «إن الرجل ليثاب حتى بالشوكة تصيب رجله» وقال ﷺ: «الحدود كفارات»، فالظالم يتبع ظلمه ظلمة في قلبه وقسوة توجب انمحاء أثر النور الذي كان في قلبه من الطاعات التي كان عملها، والمظلوم يتألم فينكسر شهوته ويمحو عن قلبه أثر السيئات التي أورثت ظلمة في قلبه فيتنور قلبه نوع تنور، فقد دار ما في قلب الظالم من النور إلى قلب المظلوم، وما في قلب المظلوم من الظلمة إلى قلب الظالم وهذا معنى نقل الحسنات والسيئات.

فإن قال قائل: ليس هذا نقلاً حقيقياً إذ حاصله بطلان النور من قلب الظالم وحدوث نور آخر في قلب المظلوم، وبطلان الظلمة من قلب المظلوم وحدوث ظلمة أخرى في قلب الظالم وليس هذا نقلاً حقيقة.

قلنا اسم النقل قد يطلق على مثل هذا الأمر على سبيل الاستعارة كما يقال: انتقل الظل من موقع إلى آخر، وانتقل نور الشمس أو السراج من الأرض إلى الحائط إلى غير ذلك، فهذا معنى نقل الطاعات، فليس فيه إلا أنه كنى بالطاعة عن ثوابها كما يكتنى بالسبب عن المسبب، وسمى إثبات الوصف في محل وإبطال مثله في محل آخر بالنقل، وكل ذلك شائع في اللسان، معلوم بالبرهان لو لم يرد الشرع به فكيف إذا ورد، انتهى ملخصاً.

أقول: محصل ما أفاده أن إطلاق النقل على ما يعامله الله سبحانه في حق، أي القاتل والمقتول استعارة في استعارة، أعني: استعارة اسم الطاعة لأثر الطاعة في القلب، واستعارة اسم النقل لإمحاء شيء وإثبات شيء آخر

في محل آخر، وإذا اطرّد هذا الوجه في سائر أحكام الأعمال المذكورة عادت جميع هذه الأحكام مجازات، وقد عرفت أنه سبحانه قرر هذه الأحكام على ما يراه العقل العملي الاجتماعي ويبني عليه أحكامه من المصالح والمفاسد، ولا ريب أن هذه الأحكام العقلية إنما تصدر من العقل باعتقاد الحقيقة، فيؤاخذ القاتل مثلاً بجرم المقتول أو يتحف المقتول أو ورثته بحسنة القاتل وما يشبه ذلك باعتقاد أن الجرم عين الجرم والحسنة عين الحسنة وهكذا.

هذا حال هذه الأحكام في ظرف الاجتماع الذي هو موطن أحكام العقل العملي وأما بالنسبة إلى غير هذا الظرف وهو ظرف الحقائق فالجميع مجازات إلا بحسب التحليل بمعنى أن نفس هذه المفاهيم لما كانت مفاهيم اعتبارية مأخوذة من الحقائق المأخوذة على نحو الدعوى والتشبيه كانت جميعها مجازات إذا قيست إلى تلك الحقائق المأخوذة منها فافهم ذلك.

٢ - تجسم الأعمال:

ومن أحكام الأعمال: أنها محفوظة مكتوبة متجسمة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجُذُّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلَعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٤).

٣ - الارتباط مع الحوادث الخارجية:

ومن أحكام الأعمال: أن بينها وبين الحوادث الخارجية ارتباطاً، ونعني بالأعمال الحسنات والسيئات التي هي عناوين الحركات الخارجية،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

(٣) سورة يس، الآية: ١٢.

(٤) سورة ق، الآية: ٢٢.

دون الحركات والسكنات، التي هي آثار الأجسام الطبيعية، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا يَأْتُسُهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ شَيْئًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا يَأْتُسُهُمْ﴾^(٣). والآيات ظاهرة في أن بين الأعمال والحوادث ارتباطاً ما شراً أو خيراً.

ويجمع جملة الأمر آيتان من كتاب الله تعالى وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥).

فالحوادث الكونية تتبع الأعمال بعض التبعية، فجري النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلوكه الطريق الذي يرتضيه يستتبع نزول الخيرات، وانفتاح أبواب البركات، وانحراف هذا النوع عن صراط العبودية، وتماديه في الغي والضلالة، وفساد النيات، وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بفشو الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله وكذا ظهور المصائب والحوادث المبيدة الكونية كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك وقد عد الله سبحانه سيل العرم وطوفان نوح وصاعقة ثمود وصرصر عاد من هذا القبيل.

فالأمة الطالحة إذا انغمرت في الرذائل والسيئات أذاقها الله وبال أمرها وآل ذلك إلى إهلاكها وإبادتها، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقي﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا

(١) الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٦) سورة المؤمن، الآية: ٢١.

أَنْ تُهْلِكَ فَرِيَّةً أَمَرْنَا مُتَرَفِّفِيهَا فَفْسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا^(١)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِعَصَا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢)﴾ هذا كله في الأمة الطالحة والأمة الصالحة على خلاف ذلك.

والفرد كالأمة يؤخذ بالحسنة والسيئة والنقم والمثالثات غير أن الفرد ربما ينعم بنعمة أسلافه كما أنه يؤخذ بمظالم غيره كآبائه وأجداده. قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ^(٣)﴾ والمراد به ما أنعم الله به عليه من الملك والعزة وغيرهما، وقال تعالى: ﴿فَنَسَفْنَا بِيَهُ وَيَدَارِيهِ الْأَرْضَ^(٤)﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا^(٥)﴾ وكأنه الذرية الصالحة المنعمة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ^(٦)﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا^(٧)﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ^(٨)﴾ والمراد بذلك الخلف المظلوم يبتلى بظلم سلفه، وبالجمللة إذا أفاض الله نعمة على أمة أو على فرد من أفراد الإنسان فإن كان المنعم عليه صالحاً كان ذلك نعمة أنعمها عليه وامتحاناً يمتحنه بذلك كما حكى الله تعالى عن سليمان إذ يقول: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ^(٩)﴾ وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥٠.

(٦) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٨) سورة النساء، الآية: ٩.

(٩) سورة النمل، الآية: ٤٠.

وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ^(١)، والآية كسابقتها تدل على أن نفس الشكر من الأعمال الصالحة التي تستتبع النعم. وإن كان المنعم عليه طالها كانت النعمة مكرراً في حقه واستدراجاً وإملاءً يملأ عليه كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾^(٤) وإذا نزلت النوازل وكرت المصائب والبلايا على قوم أو على فرد فإن كان المصاب صالحاً كان ذلك فتنة ومحنة يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب، وكان مثله مع البلاء مثل الذهب مع البوتقة والمحك، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَن يَتَذَكَّرُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ﴾^(٦)، وإن كان المصاب طالها كان ذلك أخذاً بالنقمة وعقاباً بالأعمال، والآيات السابقة دالة على ذلك.

فهذا حكم العمل يظهر في الكون ويعود إلى عامله، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٧) فغير ناظر إلى هذا الباب بل المراد به (والله أعلم) ذم الدنيا ومتاعها وأنها لا قدر لها ولمتاعها عند الله سبحانه، ولذلك يؤثر للكافر، وأن القدر للآخرة ولولا أن أفراد الإنسان أمثال والمساعي واحدة متشابهة لخصها الله بالكافر.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الدخان، الآية: ١٧.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٣٥.

إشكال:

فإن قيل: الحوادث العامة والخاصة كالسيول والزلازل والأمراض المسرية والحروب والأجذاب لها علل طبيعية مطردة إذا تحققت تحقق معاليلها سواء صلحت النفوس أو طلحت، وعليه فلا محل للتعليل بالأعمال الحسنة والسيئة بل هو فرضية دينية، وتقدير لا يطابق الواقع.

الجواب:

قلت: هذا إشكال فلسفي غير منافٍ لما نحن فيه من البحث التفسيري المتعلق بما يستفاد من كلامه تعالى.

وجملة القول فيه: إن الشبهة ناشئة عن سوء الفهم وعدم التنبه لمقاصد القرآن وأهله، فهم لا يريدون بقولهم: «إن الأعمال حسنة كانت أو سيئة مستتعة لحوادث تناسبها خيراً أو شراً» إبطال العلل الطبيعية وإنكار تأثيرها، ولا تشريك الأعمال مع العوامل المادية كما أن الإلهيين لا يريدون بإثبات الصانع إبطال قانون العلّة والمعلولية العام وإثبات الاتفاق والمجازفة في الوجود أو تشريك الصانع مع العلل الطبيعية واستناد بعض الأمور إليه والبعض الآخر إليها بل مرادهم إثبات علّة في طول علّة، وعامل معنوي فوق العوامل المادية، وإسناد التأثير إلى كلتا العلّتين لكن بالترتيب أولاً وثانياً، نظير الكتابة المنسوبة إلى الإنسان وإلى يده.

ومغزى الكلام: هو أن سائق التكوين يسوق الإنسان إلى سعادته الوجودية وكماله الحيوي. ومن المعلوم أن من جملة منازل هذا النوع في مسيره إلى السعادة منزل الأعمال، فإذا عرض لهذا السير عائق مانع يوجب توقفه أو إشراف سائره إلى الهلاك والبوار قبل ذلك بما يدفع العائق المذكور أو يهلك الجزء الفاسد، نظير المزاج البدني يعارض العاهة العارضة للبدن أو لعضو من أعضائه فإن وفق له أصلح المحل وإن عجز عنه تركه مفلجاً لا يستفاد به. وقد دلّت المشاهدة والتجربة على أن الصنع والتكوين جهز كل موجود نوعي بما يدفع به الآفات والفسادات المتوجهة إليه، ولا معنى لاستثناء الإنسان في نوعه وفرده عن هذه الكلية، ودلتنا أيضاً على أن التكوين يعارض كل موجود نوعي بأمور غير ملائمة تدعوه إلى أعمال قواه

الوجودية ليكمل بذلك في وجوده ويوصله غايته وسعادته التي هيأها له، فما بال الإنسان لا يعتني في شأنه بذلك؟

وهذا هو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، فكما أن صانعاً من الصناع إذا صنع شيئاً لعباً ومن غير غاية مثلاً انقطعت الرابطة بينه وبين مصنوعه بمجرد إيجاده، ولم يبال إلى ما يؤول أمره؟ وماذا يصادفه من الفساد والآفة؟ لكنه لو صنعه لغاية كان مراقباً لأمره شاهداً على رأسه إذا عرضه عارض يعوقه عن الغاية التي صنعه لأجلها وركب أجزائه للوصول إليها أصلح حاله وتعرض لشأنه بزيادة أو نقيصة أو بإبطاله من رأس وتحليل تركيبه والعود إلى صنعة جديدة، كذلك الحال في خلق السموات والأرض وما بينهما ومن جملتها الإنسان، لم يخلق الله سبحانه ما خلقه عبثاً ولم يوجد هباءً، بل للرجوع إليه كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنِينَ﴾^(٤)، ومن الضروري حينئذ أن تتعلق العناية الربانية إلى إيصال الإنسان كسائر ما خلق من خلق إلى غايته بالدعوة والإرشاد ثم بالامتحان والابتلاء ثم بإهلاك من بطل في حقه غاية الخلقة وسقطت عنه الهداية، فإن في ذلك إتقاناً للصنع في الفرد والنوع وختماً للأمر في أمة وإراحة الآخرين، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(٥).

وهذه السنة الربانية أعني سنة الابتلاء والانتقام هي التي أخبر الله عنها أنها سنة غير مغلوبة ولا مقهورة، بل غالبية منصوره كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٤) سورة النجم، الآية: ٤٢.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.

الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢).

٤ - الأعمال حقيقة للسعادة والشقاء:

ومن أحكام الأعمال من حث السعادة والشقاء أن قبيل السعادة فائقة على قبيل الشقاء، ومن خواص قبيل السعادة كل صفة وخاصة جميلة كالفتح والظفر والثبات والاستقرار والأمن والتأصل والبقاء كما أن مقابلاتها من الزهاق والبطلان والتزلزل والخوف والزوال والمغلوبة وما يشاكلها من خواص قبيل الشقاء.

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة متكررة، ويكفي في ذلك ما ضربه الله تعالى مثلاً: ﴿طُيْبَتْ كُشَجَرُ طَيْبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرٍ خَبِيثٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْقَوِيِّ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧) إلى غير ذلك من الآيات.

وتذييل الكلام في هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، مشعر بأن هذه الغلبة من الله سبحانه ليست بحيث يفقهها جميع

(١) سورة الشورى، الآية: ٣١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٨.

(٥) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٦) سورة الصافات، الآية: ١٧٣.

(٧) سورة يوسف، الآية: ٢١.

الناس بل أكثرهم جاهلون بها، ولو كانت هي الغلبة الحسيّة التي يعرفها كل أحد لم يجهلها الأكثرون، وإنما جهلها من جهلها وأنكرها من أنكرها من جهتين:

الأولى: أن الإنسان محدود فكره، مقصور نظره على ما بين يديه مما يشهده ولا يغيب عنه، يتكلم عن الحال ويغفل عن المستقبل، ويحسب دولة يوم دولة، ويعدّ غلبة ساعة غلبة، يأخذ عمره القصير ومتاعه القليل مقياساً يحكم به على عامة الوجود، لكن الله سبحانه وهو المحيط بالزمان والمكان والحاكم على الدنيا والآخرة والقيوم على كل شيء إذا حكم حكم فصلاً، وإذا قضى قضى حقاً، والأولى والعقبى بالنسبة إليه واحدة، لا يخاف فوتاً، ولا يعجل في أمر، فمن الممكن (بل الواقع ذلك) أن يقدر فساد يوم مقدمة يتوسل بها إلى إصلاح دهر، أو حرمان فرد ذريعة إلى فلاح أمة، فيظن الجاهل أن الأمر أعجزه تعالى وأن الله سبحانه مسبوق مغلوب (ساء ما يحكمون) لكن الله سبحانه يرى سلسلة الزمان كما يرى القطعة منه، ويحكم على جميع خلقه كما يحكم على الواحد منهم لا يشغله شأن عن شأن ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَّ إِلَهَادُ﴾^(١).

الثانية: أن غلبة المعنويات غير غلبة الجسمانيات، فإن غلبة الجسمانيات وقهرها أن تتسلط على الأفعال فتجعلها منقادة مطيعة للقاهر الغالب عليها بسلب حرية الاختيار، ويسط الكره والإجبار كما كان ذلك دأب المتغلبين من ملوك الاستبداد، فكانوا يقتلون فريقاً، ويأسرون آخرين، ويفعلون ما يشاؤون بالتحكم والتهكّم، وقد دلّ التجارب وحكم البرهان على أن الكره والقسر لا يدوم، وأن سلطة الأجانب لا يستقر على الأمم الحيّة استقراراً مؤبداً، وإنما هي رهينة أيام قلائل. وأما غلبة المعنويات فبأن توجد لها قلوب تستكنها، وبأن تربي أفراداً تعتقدها وتؤمن بها، فليس فوق الإيمان التام درجة ولا كإحكامه حصن فإذا استقر الإيمان بمعنى من المعاني فإنه سوف يظهر دهرأ وإن استخفى يوماً أو برهة، ولذلك نجد أن الدول

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦.

المعظمة والمجامع الحية اليوم تعتني بشأن التبليغ أكثر مما تعتني بشأن العدة والقوة فسلح المعنى أشد بأساً.

هذا في المعنويات الصورية الوهمية التي بين الناس في شؤونهم الاجتماعية التي لا تتجاوز حد الخيال والوهم، وأما المعنى الحق الذي يدعو إليه سبحانه فإن أمره أوضح وأبين، فالحق من حيث نفسه لا يقابل إلا الضلال والباطل، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ومن المعلوم أن الباطل لا يقاوم الحق فالغلبة لحجة الحق على الباطل.

والحق من حيث تأثيره وإيصاله إلى الغاية أيضاً غير مختلف ولا متخلف، فإن المؤمن لو غلب على عدو الحق في ظاهر الحياة كان فائزاً مأجوراً وإن غلب عليه عدو الحق، فإن أجبره على ما لا يرتضيه الله سبحانه كانت وظيفته الجري على الكره والاضطرار، ووافق ذلك رضاه تعالى، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمُ ثَنَةً﴾^(١)، وإن قتله كان ذلك له حياة طيبة لا موتاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

فالمؤمن منصور غير مغلوب أبداً، إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً فقط، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾^(٣) ومن هنا يظهر: أن الحق هو الغالب في الدنيا ظاهراً وباطناً معاً، أما ظاهراً: فإن الكون كما عرفت يهدي النوع الإنساني هداية تكوينية إلى الحق والسعادة، وسوف يبلغ غايته، فإن الظهور المترأى من الباطل جولة بعد جولة لا عبرة فيه، وإنما هو مقدمة لظهور الحق ولما ينقض سلسلة الزمان ولما يفن الدهر، والنظام الكوني غير مغلوب البتة. وأما باطناً: فلما عرفت أن الغلبة لحجة الحق.

وأما أن لحق القول والفعل كل صفة جميلة كالثبات والبقاء والحسن، ولباطل القول والفعل كل صفة ذميمة كالتزلزل والزوال والقبح والسوء فوجهه

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

أن المستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَنَّ اللَّهَ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَنَنْفُسُكَ﴾^(٣)، أن السيئات أعدام وبطلانات غير مستندة إلى الله سبحانه الذي هو الخالق الفاطر المفيض للوجود بخلاف الحسنات، ولذلك كان القول الحسن والفعل الحسن منشأ كل جمال وحسن، ومنع كل خير وسعادة كالثبات والبقاء، والبركة والنفع دون السيئة من القول والفعل، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُمْ بِقُدْرِهِ فَاتَّخَذَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

٥ - الحسنات تختلف عن السيئات في تطابقها مع العقل:

ومن أحكام الأعمال، أن الحسنات من الأقوال والأفعال مطابقة لحكم العقل بخلاف السيئات من الأفعال والأقوال، وإن الله سبحانه وضع ما بينه للناس على أساس العقل (ونعني بالعقل ما يدرك به الإنسان الحق والباطل ويميز به الحسن من السيئة) ولذلك أوصى باتباعه ونهى عن كل ما يوجب اختلال حكومته كشرب الخمر والقمار واللهو والغش والغرر في المعاملات، وكذا نهى عن الكذب والافتراء والبهتان والخيانة والفتك وجميع ما يوجب خروج العقل عن سلامة الحكم فإن هذه الأفعال والأعمال توجب خبط العقل الإنساني في عمله وقد ابتنيت الحياة الإنسانية على سلامة الإدراك والفكر في جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية.

وأنت إذا حللت المفاصد الاجتماعية والفردية حتى في المفاصد المسلمة التي لا ينكرها منكر وجدت أن الأساس فيها هي الأعمال التي

(١) سورة المؤمن، الآية: ٦٢.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٧.

يبتل بها حكومة العقل وأن بقية المفاسد وإن كثرت وعظمت مبنية عليها^(١).

٦ - حبط الأعمال وآثاره:

الحبط هو بطلان العمل وسقوط تأثيره، ولم ينسب في القرآن إلا إلى العمل كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ بِأَعْمَلِهِمْ﴾^(٣)، وذيل الآية يدل بالمقابلة على أن الحبط بمعنى بطلان العمل كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤)، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٥).

وبالجملة الحبط هو بطلان العمل وسقوطه عن التأثير، وقد قيل إن أصله من الحبط بالتحريك وهو أن يكثر الحيوان من الأكل فينتفخ بطنه وربما أدى إلى هلاكه.

والذي ذكره تعالى من أثر الحبط بطلان الأعمال في الدنيا والآخرة معاً، فللحبط تعلق بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الآخرة فإن الإيمان يطيب الحياة الدنيا كما يطيب الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦) وخسران سعي الكافر، وخاصة من ارتد إلى الكفر بعد الإيمان وحبط عمله في الدنيا ظاهر لا غبار عليه، فإن قلبه غير متعلق بأمر ثابت، وهو الله سبحانه، يبتهج به عند النعمة، ويتسلى به عند المصيبة، ويرجع إليه عند الحاجة، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

(١) انظر الميزان مجلد ٢ ص ١٧٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٤) سورة هود، الآية: ١٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٦) سورة النحل، الآية: ٩٧.

تُورًا يَمِشِي يَدَهُ فِي النَّائِسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»^(١).

ومن هنا يظهر بطلان النزاع في بقاء أعمال المرتد حين الموت والحبط عنده أو عدمه.

توضيح ذلك: أنه ذهب بعضهم إلى أن أعمال المرتد السابقة على رده باقية إلى حين الموت، فإن لم يرجع إلى الإيمان بطلت بالحبط عند ذلك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَمِثْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، وربما أيده قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢)، فإن الآية تبين حال الكفار عند الموت، ويتفرع عليه أنه لو رجع إلى الإيمان تملك أعماله الصالحة السابقة على الارتداد.

وذهب آخرون إلى أن الردة تحبط الأعمال من أصلها فلا تعود إليه وإن آمن من بعد الارتداد، نعم له ما عمله من الأعمال بعد الإيمان ثانياً إلى حين يموت، وأما الآية فإنما أخذت قيد الموت لكونها في مقام بيان جميع أعماله وأفعاله التي عملها في الدنيا!

وأنت بالتدبر فيما ذكرناه تعرف، أن لا وجه لهذا النزاع أصلاً، وأن الآية بصدد بطلان جميع أعماله وأفعاله من حيث التأثير في سعادته!

وهنا مسألة أخرى كالمتمفرعة على هذه المسألة وهي مسألة الإحباط والتكفير، وهي أن الأعمال هل تبطل بعضها بعضاً أو لا تبطل بل للحسنة حكمها وللسيئة حكمها، نعم الحسنات ربما كُفِّرَت السيئات بنص القرآن.

ذهب بعضهم إلى التباطل والتحابط بين الأعمال وقد اختلف هؤلاء بينهم فمن قائل بأن كل لاحق من السيئة تبطل الحسنة السابقة كالعكس، ولازمه أن لا يكون عند الإنسان من عمله إلا حسنة فقط أو سيئة فقط، ومن قائل بالموازنة وهو أن ينقص من الأكثر بمقدار الأقل ويبقى الباقي سليماً عن المنافي، ولازم القولين جميعاً أن لا يكون عند الإنسان من أعماله إلا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

نوع واحد حسنة أو سيئة لو كان عنده شيء منها .

ويردهما أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرِفُوا يُذَوِّبِهِمْ فَخَلُطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَأَخَرٌ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عُفُوٌّ رَّحِيمٌ﴾^(١) فإن الآية ظاهرة في
اختلاف الأعمال وبقائها على حالها إلى أن تلحقها توبة من الله سبحانه،
وهو ينافي التحابط بأي وجه تصوره .

وثانياً: أنه تعالى جرى في مسألة تأثير الأعمال على ما جرى عليه
العقلاء في الاجتماع الإنساني من طريق المجازاة، وهو الجزاء على الحسنة
على حدة وعلى السيئة على حدة إلا في بعض السيئات من المعاصي التي
تقطع رابطة المولوية والعبودية من أصلها فهو مورد الإحباط، والآيات في
هذه الطريقة كثيرة غنية عن الإيراد .

وذهب آخرون إلى أن نوع الأعمال محفوظة، ولكل عمل أثره سواء
في ذلك الحسنة والسيئة .

نعم الحسنة ربما كفرت السيئة كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى:
﴿فَمَنْ تَجَلَّ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٣) الآية، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا
كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٤)، بل بعض الأعمال يبدل
السيئة حسنة كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يَدُلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٥) .

وهنا مسألة أخرى هي كالأصل لهاتين المسألتين، وهي البحث عن
وقت استحقاق الجزاء وموطنه، فقليل: إنه وقت العمل، وقيل: حين
الموت، وقيل: الآخرة، وقيل: وقت العمل بالموافاة بمعنى أنه لو لم يدم
على ما هو عليه حال العمل إلى حين الموت وموافاته لم يستحق ذلك إلا

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣ .

(٤) سورة النساء، الآية: ٣١ .

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧٠ .

أن يعلم الله ما يؤول إليه حاله ويستقر عليه، فيكتب ما يستحقه حال العمل .
وقد استدل أصحاب كل قول بما يناسبه من الآيات، فإن فيها ما
يناسب كلاً من هذه الأوقات بحسب الانطباق، وربما استدل ببعض وجوه
عقلية ملفقة .

والذي ينبغي أن يقال: إنا لو سلطنا في باب الثواب والعقاب والحبط
والتكفير وما يجري مجراها مسلك نتائج الأعمال كان لازم ذلك كون النفس
الإنسانية ما دامت متعلقة بالبدن جوهرًا متحولاً قابلاً للتحول في ذاته وفي
آثار ذاته من الصور التي تصدر عنها وتقوم بها نتائج وآثار سعيدة أو شقية،
فإذا صدر منه حسنة حصل في ذاته صورة معنوية مقتضية لاتصافه بالثواب،
وإذا صدر منه معصية فصورة معنوية تقوم بها صورة العقاب، غير أن الذات
لما كانت في معرض التحول والتغير بحسب ما يطرؤها من الحسنات
والسيئات كان من الممكن أن تبطل الصورة الموجودة الحاضرة بتبدلها إلى
غيرها، وهذا شأنها حتى يعرضها الموت فتفارق البدن وتقف الحركة ويبطل
التحول واستعداده، فعند ذلك يثبت لها الصور وآثارها ثبوتاً لا يقبل التحول
والتغير إلا بالمغفرة أو الشفاعة .

وكذا لو سلطنا في الثواب والعقاب مسلك المجازاة كان حال الإنسان
من حيث اكتساب الحسنة والمعصية بالنسبة إلى التكاليف الإلهية وترتب
الثواب والعقاب عليها حاله من حيث الإطاعة والمعصية في التكاليف
الاجتماعية وترتب المدح والذم عليها، والعقلاء يأخذون في مدح المطيع
والمحسن وذم العاصي والمسيء بمجرد صدور الفعل عن فاعله، غير أنهم
يرون ما يجازونه به من المدح والذم قابلاً للتغير والتحول لكونهم يرون
الفاعل ممكن التغير والزوال عما هو عليه من الانقياد والتمرد، فلحوق
المدح والذم على فاعل الفعل فعلي عندهم بتحقيق الفعل غير أنه موقوف
البقاء على عدم تحقق ما ينافيه، وأما ثبوت المدح والذم ولزومهما بحيث لا
يبطلان قط فإنما يكون إذا ثبت حاله بحيث لا يتغير قط بموت أو بطلان
استعداد في الحياة .

ومن هنا يعلم: أن في جميع الأقوال السابقة في المسائل المذكورة
انحرافاً عن الحق لبنائهم البحث على غير ما ينبغي أن يبنى عليه .

وأن الحق أولاً: أن الإنسان يلحقه الثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بمجرد صدور الفعل الموجب له لكنه قابل للتغير والتحول بعد وإنما يثبت من غير زوال بالموت كما ذكرناه.

وثانياً: أن حبط الأعمال بكفر ونحوه نظير استحقاق الأجر يتحقق عند صدور المعصية ويتحتم عند الموت.

وثالثاً: أن الحبط كما يتعلق بالأعمال الأخروية كذلك يتعلق بالأعمال الدنيوية.

ورابعاً: أن التحابط بين الأعمال باطل بخلاف التكفير ونحوه.

(١) انظر الميزان المجلد ٢ ص ١٧٠.

تجرّد النفس في القرآن الكريم

يتبين بالتدبر في آيات القرآن الكريم حقيقة هي تجرد النفس ، بمعنى كونها أمراً وراء البدن وحكمها غير حكم البدن وسائر التركيبات الجسمية لها نحو اتحاد بالبدن تدبرها بالشعور والإرادة وسائر الصفات الإدراكية والتدبر في الآيات القرآنية يجلي هذا المعنى فإنها تفيد أن الإنسان بشخصه ليس بالبدن، لا يموت بموت البدن، ولا يفنى بفنائه، وانحلال تركيبه وتبدد أجزائه، وأنه يبقى بعد فناء البدن في عيشٍ هنيء دائم، ونعيم مقيم، أو في شقاء لازم، وعذاب أليم، وأن سعادته في هذه العيشة، وشقاءه فيها مرتبطة بسنخ ملكاته وأعماله، لا بالجهات الجسمية والأحكام الاجتماعية.

فهذه معانٍ تعطيها هذه الآيات الشريفة، وواضح أنها أحكام تغاير الأحكام الجسمية، وتتنافى الخواص المادية الدنيوية من جميع جهاتها، فالنفس الإنسانية غير البدن.

ومما يدل عليه من الآيات قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾^(١)، والتوفي الاستيفاء وهو أخذ الحق بتمامه وكماله، وما تشتمل عليه الآية من الأخذ والإمساك والإرسال ظاهر في المغايرة بين النفس والبدن.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَيُّدَا ضَلَّلَنَا فِي الْأَرْضِ إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٢)، ذكر سبحانه شبهة من شبهات الكفار المنكرين للمعاد، وهو أنآ بعد الموت وانحلال تركيب أبداننا تتفرق أعضاؤنا، وتبدد أجزاؤنا،

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٠ - ١١.

وتتبدل صورنا فنضل في الأرض، ويفقدنا حواس المدركين، فكيف يمكن أن نقع ثانياً في خلق جديد؟ وهذا استبعاد محض، وقد لقن تعالى على رسوله الجواب عنه بقوله: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ بِكُمْ﴾ الآية، وحاصل الجواب أن هناك ملكاً موكلاً بكم هو يتوفاكم ويأخذكم، ولا يدعكم تضلّوا وأنتم في قبضته وحفاظته وما تضل في الأرض إنما هو أبدانكم لا نفوسكم التي هي المدلول عليها بلفظ (كم) في (يتوفاكم).

ومن الآيات قوله تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(١) الآية، ذكره في خلق الإنسان ثم قال تعالى ﴿وَسَخَّلُونَا إِلَى الرُّوحِ قُلُوبُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢)، فأفاد أن الروح من سنخ أمره، ثم عرف الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣) فأفاد أن الروح من الملكوت، وأنها كلمة (كن) ثم عرف الأمر بتوصيفه بوصف آخر بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٤) والتعبير بقوله: كلمح بالبصر يعطي أن الأمر الذي هو كلمة (كن) موجود دفعي الوجود غير تدريجية فهو يوجد من غير اشتراط وجوده وتقييده بزمان أو مكان ومن هنا يتبين أن الأمر - ومنه الروح - شيء غير جسماني ولا مادي، فإن الموجودات المادية الجسمانية من أحكامها العاملة أنها تدريجية الوجود، مقيدة بالزمان والمكان، فالروح التي للإنسان ليست بمادية جسمانية، وإن كان لها تعلق بها.

وهناك آيات تكشف عن كيفية هذا التعلق، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٧) ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ

(١) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٣.

(٤) سورة القمر، الآية: ٥٠.

(٥) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٧) سورة السجدة، الآية: ٨.

نُظْفَةً فِي قَرَارٍ مُكَيَّنٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾، فأفاد أن الإنسان لم يكن إلا جسماً طبيعياً يتوارد عليه صور مختلفة متبدلة، ثم أنشأ الله هذا الذي هو جسم جامد خامد خلقاً آخر ذا شعور وإرادة، يفعل أفعالاً: من الشعور والإرادة والفكر والتصرف في الأكوان والتدبير في أمور العالم بالنقل والتبديل والتحويل إلى غير ذلك مما لا يصدر عن الأجسام والجسمانيات، فلا هي جسمانية، ولا موضوعها الفاعل لها. فالنفس بالنسبة إلى الجسم الذي ينتهي أمره إلى إنشائها - وهو البدن الذي تنشأ منه النفس - بمنزلة الثمرة من الشجرة والضوء من الدهن بوجه بعيد، وبهذا يتضح كيفية تعلقها بالبدن ابتداءً، ثم بالموت تنقطع العلاقة، وتبطل المسكة، فهي في أول وجودها عين البدن ثم تمتاز بالإنشاء منه، ثم تستقل عنه بالكلية، فهذا ما تفيدته الآيات الشريفة بظهورها، وهناك آيات كثيرة تفيد هذه الحقيقة بالإيماء والتلويح، يعثر عليها المتدبر البصير، والله الهادي.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ ﴿١﴾ لما أمرهم الله بالاستعانة بالصبر والصلاة ونهاهم عن القول بموت من يُقتل منهم في سبيل الله بل هم أحياء بين لهم السبب الذي من أجله خاطبهم بما خاطب وهو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالي ولا يصفو لهم الأمر في الحياة الشريفة، والدين الحنيف إلّا به، وهو الحرب والقتال، لا يدور رحي النصر والظفر على مرادهم إلّا أن يتحصنوا بهذين الحصنين ويتأيدوا بهاتين القوتين وهما الصبر والظفر، ويضيفوا إلى ذلك ثالثاً وهو خصلة ما حفظها قومٌ إلّا ظفروا بأقصى مرادهم وحازوا الغاية القصوى من كمالهم، واشتدّ بأسهم وطابت أنفسهم، وهو الإيمان بأن القتل منهم غير ميت ولا فقيد، وأنّ سعيهم بالمال والنفس غير ضائع ولا باطل فإن قتلوا عدوّهم فهم على الحياة، وقد أبادوا عدوّهم وما كان يريده من حكومة الجور والباطل عليهم - وإن قتلهم عدوّهم فهم على الحياة ولم يتحكم الجور والباطل عليهم، فلهم إحدى الحسنيين على أي حال.

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٤.

وعامة الشدائد التي يأتي بها هو الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس فذكرها الله تعالى وأما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد فإن تأثير الحرب في قلة النسل بموت الرجال والشبان أظهر من تأثيره في نقص ثمرات الأشجار وربما قيل: إن المراد ثمرات النخيل، وهي التمر والمراد بالأموال غيرها وهي الذّواب من الإبل والغنم.

قوله تعالى: ﴿وَيُنِيرُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أعاد ذكر الصابرين ليبشرهم أولاً، ويبين كيفية الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانياً، ويظهر به حق الأمر الذي يقضي بوجوب الصبر - وهو ملكه تعالى للإنسان - ثالثاً ويبين جزاءه العام - وهو الصلاة والرحمة والاهتداء - رابعاً. فأمر تعالى نبيه أولاً بتبشيرهم، ولم يذكر متعلّق البشارة لتفخيم أمره فإنها من الله سبحانه فلا تكون إلاّ خيراً وجميلاً، وقد ضمنها رب العزّة، ثم بيّن أن الصابرين هم الذين يقولون كذا وكذا عند إصابة المصيبة وهي الواقعة التي تصيب الإنسان، ولا يستعمل لفظ المصيبة إلاّ في النازلة المكروهة، ومن المعلوم أن ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجملة من غير حضور معناها بالبال، ولا مجرد الأخطار من غير تحقق بحقيقة معناها، وهي أن الإنسان مملوك لله بحقيقة الملك، وأن مرجعه إلى الله سبحانه وبه يتحقق أحسن الصبر الذي يقطع منابت الجزع والأسف، ويغسل رين الغفلة.

بيانه: أن وجود الإنسان وجميع ما يتبع وجوده من قواه وأفعاله قائم الذات بالله الذي هو فاطره وموجده فهو قائم به مفتقر ومستند إليه في جميع أحواله من حدوث وبقاء غير مستقلّ دونه، فلربه التصرف فيه كيف شاء وليس للإنسان من الأمر شيء إذ لا استقلال له بوجه أصلاً فله الملك في وجوده وقواه وأفعاله حقيقة. ثم إنه تعالى ملكه بالإذن نسبة ذاته، ومن هناك يقال: للإنسان وجود، وكذا نسبة قواه وأفعاله ومن هناك يقال: للإنسان قوى كالسمع والبصر، ويقال: للإنسان أفعال كالمشي والنطق، والأكل والشرب، ولولا الإذن الإلهي لم يملك الإنسان ولا غيره من المخلوقات نسبة من هذه النسب الظاهرة، لعدم الاستقلال في وجودها من دون الله أصلاً.

وقد أخبر سبحانه: أن الأشياء ستعود إلى حالها قبل الإذن ولا يبقى ملكٌ إلا لله وحده قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١)، وفيه رجوع الإنسان بجميع ما له ومعه إلى الله سبحانه وتعالى.

فهناك ملكٌ حقيقي هو الله سبحانه لا شريك له فيه لا الإنسان ولا غيره، وملكٌ ظاهريٌّ صوري كملك الإنسان نفسه وولده وماله وغير ذلك، وهو الله سبحانه حقيقة، وللإنسان بتمليكه تعالى في الظاهر مجازاً، فإذا تذكر الإنسان حقيقة ملكه تعالى، ونسبه إلى نفسه فوجد نفسه ملكاً طلقاً لربه وتذكر أيضاً أن الملك الظاهري فيما بين الإنسان ومن جملتها ملك نفسه لنفسه وماله وولده سيبطل فيعود راجعاً إلى ربه وجد أنه بالآخرة لا يملك شيئاً أصلاً لا حقيقةً ولا مجازاً، وإذا كان كذلك لم يكن معنى للتأثر عن المصائب الموجبة للتأثر عند إصابتها فإن التأثر إنما يكون من جهة فقد الإنسان شيئاً مما يملكه، حتى يفرح بوجدانه ويحزن بفقدانه، وأما إذا أذعن واعتقد أنه لا يملك شيئاً لم يتأثر ولم يحزن، وكيف يتأثر من يؤمن بأن الله له الملك وحده يتصرف في ملكه كيف يشاء؟^(٢).

(١) سورة المؤمن، الآية: ١٦.

(٢) انظر الميزان المجلد الأول ص ٣٤٦.

فلسفة تجرد النفس

١ - حقيقة تجرد النفس:

هل النفس مجردة عن المادة؟ (ونعني بالنفس ما يحكي عنه كل واحد منا بقوله أنا، وبتجردها عدم كونها أمراً مادياً ذا انقسام وزمان ومكان).

إننا لا نشك في أننا نجد من أنفسنا مشاهدة معنى نحكي عنه: بأننا، ولا نشك أن كل إنسان هو مثلنا في هذه المشاهدة التي لا نغفل عنه حيناً من أحيان حياتنا وشعورنا، وليس هو شيئاً من أعضائنا، وأجزاء بدننا التي نشعر بها بالحس أو بنحو من الاستدلال كأعضائنا الظاهرة المحسوسة بالحواس الظاهرة من البصر واللمس ونحو ذلك، وأعضائنا الباطنة التي عرفناها بالحس والتجربة فإننا ربما نغفل عن كل واحد منها وعن كل مجموع منها حتى عن مجموعها التام الذي نسميه بالبدن، ولا نغفل قط عن المشهود الذي نعبر عنه: بأننا فهو غير البدن وغير أجزائه.

وأيضاً لو كان هذا البدن أو شيئاً من أعضائه أو أجزائه، أو خاصّة من الخواص الموجودة فيها، وهي جميعاً مادية، ومن حكم المادة التغير التدريجي وقبول الانقسام والتجزؤ - لكان مادياً متغيراً وقابلاً للانقسام وليس كذلك فإن كل أحد إذا رجع إلى هذه المشاهدة النفسانية اللازمة لنفسه، وذكر ما كان يجده من هذه المشاهدة منذ أول شعوره بنفسه وجده معنى مشهوداً واحداً باقياً على حاله من غير أدنى تعدد وتغير، كما يجد بدنه وأجزاء بدنه والخواص الموجودة معها متغيرة متبدلة من كل جهة في مادتها وشكلها، وسائر أحوالها وصورها، وكذا وجده معنى بسيطاً غير قابل للانقسام والتجزؤ، كما يجد البدن وأجزاء وخواصه - وكل مادة وأمر مادي كذلك - فليست النفس هي البدن، ولا جزءاً من أجزائه، ولا خاصّة من

خواصه، سواء أدركناه بشيء من الحواس أو بنحو من الاستدلال، أو لم ندرك، فإنها جميعاً مادية كيفما فرضت ومن حكم المادة التغير، وقبول الانقسام، والمفروض أن ليس في مشهودنا المسمى بالنفس شيء من هذه الأحكام فليست النفس بمادية بوجه.

وأيضاً هذا الذي نشاهده، نشاهده أمراً واحداً بسيطاً ليس فيه كثرة من الأجزاء ولا خليط من خارج بل هو واحد صرف فكل إنسان يشاهد ذلك من نفسه ويرى أنه هو وليس بغيره فهذا المشهود أمرٌ مستقلٌ في نفسه لا ينطبق عليه حد المادة ولا يوجد فيه شيء من أحكامها اللازمة، فهو جوهرٌ مجرد عن المادة، متعلق بالبدن نحو تعلق يوجب اتحاداً ما له بالبدن وهو التعلق التدبيري وهو المطلوب.

أقوال الناكرين وردها:

وقد أنكر تجرد النفس جميع الماديين، وجمعٌ من الإلهيين من المتكلمين، والظاهرين من المحدثين، واستدلوا على ذلك، وردوا ما ذكر من البرهان بما لا يخلو عن تكلف من غير طائل.

قال الماديون: إن الأبحاث العلمية على تقدمها وبلوغها اليوم إلى غاية الدقة في فحصها وتجسسها لم تجد خاصية من الخواص البدنية إلا وجدت علّتها المادية، ولم تجد أثراً روحياً لا يقبل الانطباق على قوانين المادة حتى تحكم بسببها بوجود روح مجردة.

قالوا وسلسلة الأعصاب تؤدي الإدراكات إلى العضو المركزي وهو الجزء الدماغى على التوالي وفي نهاية السرعة، ففيه مجموعة متحدة ذات وضع واحد لا يتميز أجزاؤها ولا يدرك بطلان بعضها، وقيام الآخر مقامه، وهذا الواحد المتحصّل هو نفسنا التي نشاهدها، ونحكي عنها بأننا، فالذي نرى أنه غير جميع أعضائنا صحيح إلا أنه لا يثبت أنه غير البدن وغير خواصه، بل هو مجموعة متحدة من جهة التوالي والتوارد لا تغفل عنه، فإن لازم الغفلة عنه على ما تبين بطلان الأعصاب ووقوفها عن أفعالها وهو الموت، والذي نرى أنه ثابت صحيح، لكن لا من جهة ثباته وعدم تغيره في نفسه بل الأمر مشتبه على المشاهدة من جهة توالي الواردات الإدراكية

وسرعة ورودها، كالحوض الذي يرد عليه الماء من جانب ويخرج من جانب بما يساويه وهو مملوء دائماً، فما فيه من الماء يجده الحس واحداً ثابتاً، وهو بحسب الواقع لا واحد ولا ثابت، وكذا يجد عكس الإنسان أو الشجر أو غيرهما فيه واحداً ثابتاً وليس واحداً ثابتاً بل هو كثير متغير تدريجاً بالجريان التدريجي الذي لأجزاء الماء فيه، وعلى هذا النحو وجود الثبات والوحدة والشخصية التي ترى في النفس.

قالوا: فالنفس التي يقام البرهان على تجردها من طريق المشاهدة الباطنية هي في الحقيقة مجموعة من خواص طبيعية، وهي الإدراكات العصبية التي هي نتائج حاصلة من التأثير والتأثر المتقابلين بين جزء المادة الخارجية وجزء المركب العصبي، ووحدتها وحدة اجتماعية لا وحدة واقعية حقيقية.

أقول: أما قولهم إن الأبحاث العلمية المبتنية على الحس والتجربة لم تظهر في سيرها الدقيق بالروح، ولا وجدت حكماً من الأحكام غير قابل التعليل إلا بها فهو كلام حق لا ريب فيه لكنه لا ينتج انتفاء النفس المجردة التي أقيم البرهان على وجودها، فإن العلوم الطبيعية الباحثة عن أحكام الطبيعة وخواص المادة إنما تقدر على تحصيل خواص موضوعها الذي هو المادة، وإثبات ما هو من نسخها، وكذا الخواص والأدوات المادية التي نستعملها لتتميم التجارب المادي إنما لها أن تحكم في الأمور المادية، وأما ما وراء المادة والطبيعة، فليس لها أن تحكم فيها نفيّاً ولا إثباتاً، وغاية ما يشعر البحث المادي به هو عدم الوجدان، وعدم الوجدان غير عدم الوجود، وليس من شأنه كما عرفت أن يجد ما بين المادة التي هي موضوعها، ولا بين أحكام المادة وخواصها التي هي نتائج بحثها أمراً مجرداً خارجاً عن سنخ المادة وحكم الطبيعة.

والذي جرّأهم على هذا النفي زعمهم أن المبتنين لهذه النفس المجردة إنما أثبتوها لعثورهم إلى أحكام حيوية من وظائف الأعضاء ولم يقدروا على تعليلها العلمي فأثبتوا النفس المجردة لتكون موضوعاً مبدئاً لهذه الأفعال، فلما حصل العلم اليوم على عللها الطبيعية لم يبق وجهٌ للقول بها، ونظير هذا الزعم ما زعموه في باب إثبات الصانع.

وهو اشتباه فاسد فإن المثبتين لوجود هذه النفس لم يثبتوها لذلك ولم يسندوا بعض الأفاعيل البدنية إلى البدن فيما علله ظاهرة، وبعضها إلى النفس فيما علله مجهولة، بل أسندوا الجميع إلى العلل البدنية بلا واسطة وإلى النفس بواسطتها وإنما أسندوا إلى النفس ما لا يمكن إسناده إلى البدن البتة وهو علم الإنسان بنفسه ومشاهدته ذاته كما مر.

وأما قولهم: إن الإنية المشهودة للإنسان على صفة الوحدة هي عدة من الإدراكات العصبية الواردة على المركز على التوالي وفي نهاية السرعة - ولها وحدة اجتماعية - فكلام لا محصل له ولا ينطبق عليه الشهود النفساني البتة، وكأنهم ذهّلوا عن شهودهم النفساني فعدّلوا عنه إلى ورود المشهودات الحسية إلى الدماغ واشتغلوا بالبحث عما يلزم ذلك من الآثار التالية وليت شعري إذا فرض أن هناك أموراً كثيرة بحسب الواقع لا وحدة لها البتة، وهذه الأمور الكثيرة التي هي الإدراكات أمور مادية ليس وراءها شيء آخر إلا نفسها، وأن الأمر المشهود الذي هو النفس الواحدة هو عين هذه الإدراكات الكثيرة، فمن أين حصل هذا الواحد الذي لا نشاهد غيره؟ ومن أين حصلت هذه الوحدة المشهودة فيها عياناً؟

والذي ذكره من وحدتها الاجتماعية كلام أشبه بالهزل منه بالجد فإن الواحد الاجتماعي هو كثيرٌ في الواقع من غير وحدة وإنما وحدتها في الحس أو الخيال كالدار الواحدة والخط الواحد مثلاً، لا في نفسه، والمفروض في محل كلامنا أن الإدراكات والشعورات الكثيرة في نفسها هي شعور واحد عند نفسها، فلازم قولهم إن هذه الإدراكات في نفسها كثيرة لا ترجع إلى وحدة أصلاً، وهي بعينها شعور واحد نفساني واقعاً، وليس هناك أمرٌ آخر له هذه الإدراكات الكثيرة فيدركها على نعت الوحدة كما يدرك الحاسة أو الخيال المحسوسات أو المتخيلات الكثيرة المجتمعة على وصف الوحدة الاجتماعية، فإن المفروض أن مجموع الإدراكات الكثيرة في نفسها نفس الإدراك النفساني الواحد في نفسه، ولو قيل: إن المدرك ههنا الجزء الدماغية يدرك الإدراكات الكثيرة على نعت الوحدة كان الإشكال بحاله، فإن المفروض أن إدراك الجزء الدماغية نفس هذه الإدراكات الكثيرة المتعاقبة بعينها، لا أن للجزء الدماغية قوة إدراك تتعلق بهذه الإدراكات

كتعلّق القوى الحسية بمعلوماتها الخارجية وانتزاعها منها صوراً حسية. والكلام في كيفية حصول الثبات والبساطة في هذا المشهود الذي هو متغير متجزئ في نفسه كالكلام في حصول وحدته.

مع أن هذا الفرض أيضاً - أعني أن تكون الإدراكات الكثيرة المتوالية المتعاقبة مشعورة بشعور دماغي على نعت الوحدة - نفسه فرضٌ غير صحيح، فما شأن الدماغ والقوة التي فيه، والشعور الذي لها، والمعلوم الذي عندها، وهي جميعاً أمور مادية ومن شأن المادة والمادي الكثرة، والتغير، وقبول الانقسام، وليس في هذه الصورة العلمية شيء من هذه الأوصاف والنعوت، وليس غير المادة والمادي هناك شيء؟

وقولهم: إن الأمر يشبهه على الحس أو القوة المدركة، فيدرك الكثير المتجزئ المتغير واحداً بسيطاً ثابتاً غلط واضح، فإن الغلط والاشتباه من الأمور النسبية التي تحصل بالمقايسة والنسبة، لا من الأمور النفسية مثال ذلك أنا نشاهد الأجرام العظيمة السماوية صغيرة كالنقاط البيض، ونغلط في مشاهدتنا هذه، على ما تبينه البراهين العلمية، وكثير من مشاهدات حواسنا إلا أن هذه الأغلاط إنما تحصل وتوجد إذا قايستنا ما عند الحس مما في الخارج من واقع هذه المشهودات، وأما ما عند الحس في نفسه فهو أمر واقعي كنقطة بيضاء لا معنى لكونه غلطاً البتة.

والأمر فيما نحن فيه من هذا القبيل فإن حواسنا وقوانا المدركة إذا وجدت الأمور الكثيرة المتغيرة المتجزئة على صفة الوحدة والثبات والبساطة كانت القوى المدركة غالطة في إدراكها مشتبهة في معلومها بالقياس إلى المعلوم الذي في الخارج وأما هذه الصورة العلمية الموجودة عند القوة فهي واحدة ثابتة بسيطة في نفسها البتة، ولا يمكن أن يقال للأمر الذي هذا شأنه: إنه مادي لفقده أوصاف المادة العامة.

نتيجة البحث

فقد تحصّل من جميع ما ذكرنا أن الحجة التي أوردها الماديون من طريق الحس والتجربة إنما ينتج عدم الوجدان، وقد وقعوا في المغالطة بأخذ عدم الوجود (وهو مدّعاهم) مكان عدم الوجدان، وما صوّروه لتقرير الشهود

النفساني المثبت لوجود أمر واحد بسيط ثابت تصوير فاسد لا يوافق، لا الأصول المادية المسلحة بالحس والتجربة، ولا واقع الأمر الذي هو عليه في نفسه.

وأما ما افترضه الباحثون في علم النفس الجديد في أمر النفس وهو أنه الحالة المتحدة الحاصلة من تفاعل الحالات الروحية، من الإدراك والإرادة والرضا والحب وغيرها المنتجة لحالة متحدة مؤلفة فلا كلام لنا فيه، فإن لكل باحث أن يفترض موضوعاً ويضعه موضوعاً لبحثه، وإنما الكلام فيه من حيث وجوده وعدمه في الخارج والواقع مع قطع النظر عن فرض الفارض وعدمه، وهو البحث الفلسفي كما هو ظاهر على الخبير بجهات البحث.

إشكال آخر وجوابه:

وقال قوم آخرون من نفاة تجرد النفس من المليئين: إن الذي يتحصل من الأمور المربوطة بحياة الإنسان كالتشريح الفيزيولوجي أن هذه الخواص الروحية الحيوية تستند إلى جراثيم الحياة والسلالات التي هي الأصول في حياة الإنسان وسائر الحيوان وتتعلق بها، فالروح خاصّة وأثر مخصوص فيها لكل واحد منها أرواح متعددة فالذي يسميه الإنسان روحاً لنفسه ويحكي عنه بأنا مجموعة متكونة من أرواح غير محصورة على نعت الاتحاد والاجتماع، ومن المعلوم أن هذه الكيفيات الحيوية والخواص الروحية تبطل بموت الجراثيم والسلالات وتفسد بفسادها فلا معنى للروح الواحدة المجردة الباقية بعد فناء التركيب البدني غاية الأمر أن الأصول المادية المكتشفة بالبحث العلمي لما لم تفِ بكشف رموز الحياة كان لنا أن نقول:

إن العلل الطبيعية لا تفي بإيجاد الروح فهي معلولة لموجود آخر وراء الطبيعة، وأما الاستدلال على تجرد النفس من جهة العقل محضاً فشيء لا يقبله ولا يصغي إليه العلوم اليوم لعدم اعتمادها على غير الحس والتجربة، هذا.

أقول: وأنت خبير بأن جميع ما أوردناه على حجة الماديين وارد على هذه الحجة المختلفة من غير فرق ونزيدها أنها مخدوشة أولاً: بأن عدم وفاء

الأصول العلمية المكتشفة إلى اليوم ببيان حقيقة الروح والحياة لا ينتج عدم وفائها أبداً ولا عدم انتهاء هذه الخواص إلى العلل المادية في نفس الأمر على جهل منا، فهل هذا إلا مغالطة وضع فيها العلم بالعدم مكان عدم العلم؟

وثانياً: بأن استناد بعض حوادث العالم - وهي الحوادث المادية - إلى المادة، وبعضها الآخر وهي الحوادث الحيوية إلى أمر وراء المادة - وهو الصانع - قول بأصلين في الإيجاد، ولا يرتضيه المادي ولا الإلهي، وجميع أدلة التوحيد يبطله.

وهنا إشكالات أخر أوردوها على تجرد النفس مذكورة في الكتب الفلسفية والكلامية غير أن جميعها ناشئة عن عدم التأمل والإمعان فيما مرّ من البرهان، وعدم الثبوت في تعقل الغرض منه^(١).

(١) انظر الميزان مجلد ١ ص ٣٦٢.

نشأة البرزخ في القرآن الكريم

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ تَشْعُرُونَ﴾^(١) فالآية تدل دلالة واضحة على حياة الإنسان البرزخية، كآلية النظيرة لها وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢) والآيات في ذلك كثيرة.

ومن أعجب الأمر ما ذكره بعض الناس في الآية: أنها نزلت في شهداء بدر، فهي مخصوصة بهم فقط، لا تتعداهم إلى غيرهم هذا، ولقد أحسن بعض المحققين من المفسرين في تفسير قوله: ﴿وَأَسْعَيْنَا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ﴾... الآية، إذ سأل الله تعالى الصبر على تحمّل أمثال هذه الأقاويل.

وليت شعري ماذا يقصده هؤلاء بقولهم هذا؟ وعلى أي صفة يتصورون حياة شهداء بدر بعد قتلهم مع قولهم بانهدام الإنسان بعد الموت والقتل، وانحلال تركيبه وبطلانه؟ أهو على سبيل الإعجاز باختصاصهم من الله بكرامة لم يكرم بها النبي الأكرم وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين، إذ خصهم الله ببقاء وجودهم بعد الانعدام؟ فليس ذلك بإعجاز بل إيجاد محال ضروري الاستحالة ولا إعجاز في محال، ولو جاز عند العقل إبطال هذا الحكم على بدايتها لم يستقم حكم ضروري فما دونه، أم هو على نحو الاستثناء في حكم الحس بأن يكون الحس مخطئاً في أمر هؤلاء الشهداء؟ فهم أحياء يرزقون بالأكل والشرب وسائر التمتع - وهم غائبون عن الحس - وما ناله الحس من أمرهم بالقتل وقطع الأعضاء وسقوط الحس

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

وانحلال التركيب فقد أخطأ في ذلك من رأس، فلو جاز على الحس أمثال هذه الأغلاط فيصيب بشيء ويغلط في آخر من غير مخصص بطل الوثوق به على الإطلاق، ولو كان المخصص هو الإرادة الإلهية احتاج تعلقها إلى مخصص آخر، والإشكال - وهو عدم الوثوق بالإدراك على حاله - فكان من الجائز أن نجد ما ليس بواقع واقعاً والواقع ليس بواقع، وكيف يرضى عاقل أن يتفوه بمثل ذلك؟ وهل هو إلا سفسطة؟

وقد سلك هؤلاء في قولهم هذا مسلك العامة من المحدثين، حيث يرون أن الأمور الغائبة عن حواسنا مما يدل عليه الظواهر الدينية من الكتاب والسنة كالملائكة وأرواح المؤمنين وسائر ما هو من هذا القبيل موجودات مادية طبيعية وأجسام لطيفة تقبل الحلول والنفوذ في الأجسام الكثيفة، على صورة الإنسان ونحوه، يفعل جميع الأفعال الإنسانية مثلاً، ولها أمثال القوى التي لنا غير أنها ليست محكومة بأحكام الطبيعة، من التغير والتبدل والتركيب وانحلاله، والحياة والموت الطبيعيين، فإذا شاء الله تعالى ظهورها ظهرت لحواسنا، وإذا لم يشأ أو شاء أن لا تظهر لم تظهر، مشيئة خالصة من غير مخصص في ناحية الحواس أو تلك الأشياء.

وهذا القول منهم مبني على إنكار العلية والمعلولية بين الأشياء، ولو صحت هذه الأمنية الكاذبة بطلت جميع الحقائق العقلية، والأحكام العلمية، فضلاً عن المعارف الدينية ولم تصل النوبة إلى أجسامهم اللطيفة المكرومة التي لا تصل إليها يد التأثير والتأثر المادي الطبيعي، وهو ظاهر.

فقد تبين بما مر، أن الآية دالة على الحياة البرزخية، وهي المسماة بعالم القبر، عالم متوسط بين الموت والقيامة، ينعم فيه الميت أو يعذب حتى تقوم القيامة.

ومن الآيات الدالة عليه، وهي نظيرة لهذه الآية الشريفة، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَنْعَمُونَ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧١.

وقد مرّ تقريب دلالة الآية على المطلوب، ولو تدبّر القائل باختصاص هذه الآيات بشهداء بدر في متن الآيات لوجد أن سياقها يفيد اشتراك سائر المؤمنين معهم في الحياة، والتنعم بعد الموت.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ^(١)، والآية ظاهرة الدلالة على أن هناك حياة متوسطة بين حياتهم الدنيوية وحياتهم بعد البعث.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِكَةَ﴾ (ومن المعلوم أن المراد به أول ما يرونهم وهو يوم الموت كما تدل عليه آيات أخرى) ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِبْرًا نَحْجُرًا وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاوَاتُ بِالْعَمَمِ﴾ (وهو يوم القيامة) ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَكَةُ تَنْزِيلًا الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا^(٢)، ودلالتها ظاهرة.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفَنُكَلِّمُكَ أَفْئَتَيْنِ وَالْحَيِّتَنَا أَفَنُكَلِّمُكَ أَفْئَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ^(٣)، فهنا إلى يوم البعث - وهو يوم قولهم هذا - إماتان وإحياءان، ولن يستقيم المعنى إلا بإثبات البرزخ، فيكون إماتة وإحياء في البرزخ، وإحياء في يوم القيامة، ولو كان أحد الإحياءين في الدنيا والآخر في الآخرة لم يكن هناك إلا إماتة واحدة من غير ثانية..

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ^(٤) إذ من المعلوم أن يوم القيامة لا بكرة فيه ولا عشي فهو يوم غير اليوم.

والآيات التي تستفاد منها هذه الحقيقة القرآنية، أو تؤمى إليها كثيرة،

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٢١ - ٢٦.

(٣) سورة المؤمن، الآية: ١١.

(٤) سورة المؤمن، الآية: ٤٦.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ أَتَىٰ أَمْرٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، إلى غير ذلك^(٢).

البرزخ في ضوء الروايات:

في تفسير القمي عن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة مثل له ماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنني كنت عليك لحريصاً شحيحاً، فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك، ثم يلتفت إلى ولده فيقول: والله إنني كنت لكم محبباً، وإنني كنت عليكم لحامياً، فماذا لي عندكم؟ فيقولون نؤديك إلى حفرتك ونواريك فيها، ثم يلتفت إلى عمله فيقول: والله إنني كنت فيك لزاهداً، وإنك كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم حشرك، حتى أعرض أنا وأنت على ربك، فإن كان الله ولياً أناه أطيّب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً، وأزينهم ريشاً، فيقول: أبشر بروح من الله وريحان وجنة نعيم، قد قدمت خير مقدم، فيقول: من أنت؟ فيقول أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنة، وإنه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يعجله. فإذا دخل قبره أناه ملكان، وهما فتانا القبر، يجران أشعارهما، وينحطان الأرض بأنياهما، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فيقول: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني فيقولان ثبّتك الله فيما تحب وترضى، وهو قول الله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، فيفسحان له في قبره مدّ بصره، ويفتحان له باباً إلى الجنة، ويقولان: نم قرير العين نوم الشاب الناعم، وهو قوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

وإذا كان لربه عدواً فإنه يأتيه أقبح خلق الله ريشاً، وأنتنه ريحاً، فيقول له أبشر بنزل من حميم، وتصلية جحيم، وإنه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يحبسه فإذا دخل قبره أتيا ممتحنا القبر، فألقيا عنه أكفانه ثم قالوا له، من

(١) سورة النحل، الآية: ٦٣.

(٢) انظر الميزان مجلد ١ ص ٣٤٣.

ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري فيقولان له: ما دريت ولا هديت، فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابة إلا وتذعر لها ما خلا الثقلان، ثم يفتحان له باباً إلى النار، ثم يقولان له: نم بشر حال، فيبوء من الضيق مثل ما فيه القنا من الزج، حتى إن دماغه يخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهوامها تنهشه حتى يبعثه الله من قبره، وإنه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر.

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وابن شعبة وأحمد وهناد بن السري وعبد بن حميد وأبو داود في سننه وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فأنتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: استعيذوا من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً.

ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من كفن الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج تسيل كما يسيل القطر من في السماء وإن كنتم ترون غير ذلك فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط فتخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فتفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيعاد روحه في جسده.

فيأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله،

فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد! فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح فيقول: رب أقم الساعة أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطع من الدنيا نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فيفارق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها.

فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا تفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾.

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فيطرح روحه طراحاً. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري! فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري! فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه القبر حتى تختلف فيه أضلاعه.

وبأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي
يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء
بالشر فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

أقول: والرواية من المشهورات رواها جمع من المؤلفين في كتبهم
كما رأيت، وفي معناها روايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم
السلام.

وفي تفسير العياشي عن سعيد بن جناح قال: حدثني عوف بن عبد الله
الأزدي عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قبض روح
الكافر: فإذا أتني بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء، وذلك
قوله: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ﴾ إلى آخر الآية. يقول الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (١).

أقول: وروي ما في معناه في المجمع عنه عليه السلام.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وآله تلا هذه
الآية: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: هي طبقات من فوقه،
وطبقات من تحته لا يدري ما فوقه أكبر أو ما تحته؟ غير أنه ترفعه الطبقات
السفلى وتضعه الطبقات العليا، ويضيق عليهما حتى يكون بمنزلة الزج في
القدح.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وآله قال:
يحبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض
ظلاماتهم في الدنيا فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل.

وفيه أخرج النسائي وابن أبي الدنيا وابن جرير في ذكر الموت وابن
مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل أهل النار يرى منزله من
الجنة يقول: لو هدانا الله، فيكون حسرة عليهم، وكل أهل الجنة يرى منزله
من النار فيقول لولا أن هدانا الله، فهذا شكرهم.

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

وفي منتخب البصائر عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا يسأل في القبر إلا من محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً فقلت له: فسائر الناس؟ فقال: يلهمي عنهم.

وفي أمالي الشيخ عن ابن ظبيان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين بعد موتهم؟ قلت: يقولون في حواصل طيور خضر، فقال: سبحان الله، المؤمن أكرم على الله من ذلك! إذا كان ذلك أتاه رسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ومعهم ملائكة الله عز وجل المقربون، فإن أنطق الله لسانه بالشهادة له بالتوحيد، وللنبي بالنبوة، والولاية لأهل البيت، شهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والملائكة المقربون معهم وإن اعتقل لسانه خصّ الله نبيه بعلم ما في قلبه من ذلك، فشهد به، وشهد على شهادة النبي: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومن حضر معهم من الملائكة فإذا قبضه الله إليه صير تلك الروح إلى الجنة، في صورة كصورته، فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا.

وفي المحاسن عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر الأرواح، أرواح المؤمنين فقال: يلتقون، قلت: يلتقون؟ قال: نعم يتساءلون ويتعارفون حتى إذا رأيته قلت: فلان؟

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب ويستر عنه ما يكره، وإن الكافر ليزور أهله، فيرى ما يكره، ويستر عنه ما يحب، قال: منهم من يزور كل جمعة، ومنهم من يزور على قدر عمله.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: إن الأرواح في صفة الأجساد في شجر الجنة، تعارف وتساءل، فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها، فإنها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان، وما فعل فلان، فإن قالت لهم، تركته حياً ارتجوه، وإن قالت لهم قد هلك، قالوا قد هوى هوى^(١).

(١) انظر مجلد ١ ص ٣٥٩.

المسخ وإحياء الموتى من نظرة فلسفية

١ - إثبات المعجزة:

إن سورة البقرة مشتملة على عدة من الآيات المعجزة في قصص بني إسرائيل وغيرهم، كغرق البحر وإغراق آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، وأخذ الصاعقة بني إسرائيل وإحيائهم بعد الموت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُ لِمُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية، وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا لَبَّيْنَا عَلَى الْكَوْبِ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الآية. ورفع الطور فوقهم في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ الآية، ومسح قوم منهم في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الآية، وإحياء القتيل ببعض البقرة المذبوحة في قوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ الآية، وإحياء قوم آخرين في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، وإحياء الذي مرّ على قرية خربة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ الآية، وإحياء الطير بيد إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية.

فهذه اثنتا عشرة آية معجزة خارقة للعادة جرت أكثرها في بني إسرائيل - ذكرها القرآن - وقد بينا فيما مر إمكان وقوع المعجزة وأن خوارق العادات جائزة الوقوع في الوجود وهي مع ذلك ليست ناقضة لقانون العلية والمعلولية الكلي، وتبين به أن لا دليل على تأويل الآيات الظاهرة في وقوع الإعجاز، وصرفها عن ظواهرها ما دامت الحادثة ممكنة، بخلاف المحالات كأنقسام الثلاثة بمتساويين وتولد مولود يكون أباً لنفسه، فإنه لا سبيل إلى جوازها.

٢ - إشكال وجواب:

نعم تختص بعض المعجزات كإحياء الموتى والمسح ببحث آخر، فقد قيل: إنه قد ثبت في محله أن الوجود الذي له قوة الكمال والفعلية إذا خرج من القوة إلى الفعل فإنه يستحيل بعد ذلك رجوعه إلى القوة ثانياً، وكذلك كل ما هو أكمل وجوداً فإنه لا يرجع في سيره الاستكمالي إلى ما هو أنقص وجوداً منه من حيث هو كذلك.

والإنسان بموته يتجرد بنفسه عن المادة فيعود موجوداً مجرداً مثالياً أو عقلياً، وهاتان الرتبتان فوق رتبة المادة، والوجود فيهما أقوى من الوجود المادي، فمن المحال أن تتعلق النفس بعد موتها بالمادة ثانياً وإلا لزم رجوع الشيء إلى القوة بعد خروجه إلى الفعل، وهو محال، وأيضاً الإنسان أقوى وجوداً من سائر أنواع الحيوان، فمن المحال أن يعود الإنسان شيئاً من سائر أنواع الحيوان بالمسح.

أقول: ما ذكره من استحالة رجوع ما بالقوة بعد خروجه إلى الفعل إلى القوة ثانياً حق لا ريب فيه، لكن عود الميت إلى حياته الدنيا ثانياً في الجملة وكذا المسح ليسا من مصاديقه.

بيان ذلك أن المحصل من الحس والبرهان أن الجوهر النباتي المادي إذا وقعت في صراط الاستكمال الحيواني فإنه يتحرك إلى الحيوانية، فيتصور بالصورة الحيوانية وهي صورة مجردة بالتجرد البرزخي، وحقيقتها إدراك الشيء نفسه بإدراك جزئي خيالي وهذه الصورة وجود كامل للجوهر النباتي وفعلية لهذه القوة تلبس بها بالحركة الجوهرية ومن المحال أن ترجع يوماً إلى الجوهر المادي فتصير إياه إلا أن تفارق مادتها فتبقى المادة مع صورة مادية كالحيوان يموت فيصير جسداً لا حراك به، ثم إن الصورة الحيوانية مبدأ لأفعال إدراكية تصدر عنها، وأموال علمية تترتب عليها، تنتقش النفس بكل واحد من تلك الأحوال بصدورها منها، ولا يزال نقش عن نقش، وإذا تراكمت من هذه النقوش ما هي متشاكلة متشابهة تحصل نقش واحد وصار صورة ثابتة غير قابلة للزوال، وملكة راسخة، وهذه صورة نفسانية جديدة يمكن أن يتنوع بها نفس حيواني فتصير حيواناً خاصاً ذا صورة خاصة متنوعة كصورة المكر والحقد والشهوة والوفاء والافتراس وغير ذلك وإذا لم تحصل

ملكة بقيت النفس على مرتبتها الساذجة السابقة كالنبات إذا وقفت عن حركتها الجوهرية بقي نباتاً ولم يخرج إلى الفعلية الحيوانية، ولو أن النفس البرزخية تتكامل من جهة أحوالها وأفعالها بحصول الصورة دفعة لانقطعت علقته مع البدن في أول وجودها لكنها تتكامل بواسطة أفعالها الإدراكية المتعلقة بالمادة شيئاً فشيئاً حتى تصير حيواناً خاصاً إن عمّر العمر الطبيعي أو قدراً معتداً به، وإن حال بينه وبين استتمام العمر الطبيعي أو القدر المعتد به مانع كالموت الاخترامي بقي على ما كان عليه من سذاجة الحيوانية، ثم إن الحيوان إذا وقع في صراط الإنسانية وهي الوجود الذي يعقل ذاته تعقلاً كلياً مجرداً عن المادة ولوازمها من المقادير والألوان وغيرها خرج بالحركة الجوهرية من فعلية المثال التي هي قوة العقل إلى فعلية التجرد العقلي وتحققت له صورة الإنسان بالفعل ومن المحال أن تعود هذه الفعلية إلى قوتها التي هي التجرد المثالي على حد ما ذكر في الحيوان.

ثم إن لهذه الصورة أيضاً أفعالاً وأحوالاً تحصل بتراكمها التدريجي صورة خاصة جديدة توجب تنوع النوعية الإنسانية على حد ما ذكر نظيره في النوعية الحيوانية.

إذا عرفت ما ذكرناه ظهر لك أننا لو فرضنا إنساناً رجع بعد موته إلى الدنيا وتجدد لنفسه التعلق بالمادة وخاصة المادة التي كانت متعلقة بنفسه من قبل لم يبطل بذلك أصل تجرد نفسه فقد كانت مجردة قبل انقطاع العلة ومعها أيضاً وهي مع التعلق ثانياً حافظة لتجردها، والذي كان لها بالموت أن الأداة التي كانت رابطة فعلها بالمادة صارت مفقودة لها فلا تقدر على فعل مادي كالصانع إذا فقد آلات صنعه والأدوات اللازمة لها، فإذا عادت النفس إلى تعلقها الفعلي بالمادة أخذت في استعمال قواها وأدواتها البدنية ووضعت ما اكتسبتها من الأحوال والملكات بواسطة الأفعال فوق ما كانت حاضرة وحاصلة لها من قبل واستكملت بها استكمالاً جديداً من غير أن يكون ذلك منه رجوعاً قهقري وسيراً نزولياً من الكمال إلى النقص ومن الفعل إلى القوة.

شبهة:

فإن قلت: هذا يوجب القول بالقسر الدائم مع ضرورة بطلانه، فإن النفس المجردة المنقطعة عن البدن لو بقي في طباعها إمكان الاستكمال من جهة الأفعال المادية بالتعلق بالمادة ثانياً كان بقاؤها على الحرمان من الكمال إلى الأبد حرماناً عما تستدعيه بطباعها، فما كل نفسٍ براجعة إلى الدنيا بإعجاز أو خرق عادة، والحرمان المستمر قسر دائم.

جوابها:

قلت هذه النفوس التي خرجت من القوة إلى الفعل في الدنيا واتصلت إلى حدٍ وماتت عندها لا تبقى على إمكان الاستكمال اللاحق دائماً بل تستقر على فعليتها الحاضرة بعد حين أو تخرج إلى الصورة العقلية المناسبة لذلك وتبقى على ذلك وتزول الإمكان المذكور بعد ذلك. فالإنسان الذي مات وله نفسٌ ساذجة غير أنه فعل أفعالاً وخلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً لو عاش حيناً أمكن أن يكتسب على نفسه الساذجة صورة سعيدة أو شقية وكذا لو عاد بعد الموت إلى الدنيا أمكن أن يكتسب على صورته السابقة صورةً خاصةً جديدةً وإذا لم يعد فهو في البرزخ مثابٌ أو معذب بما كسبه من الأفعال حتى يتصور بصورة عقلية مناسبة لصورته السابقة المثالية وعند ذلك يبطل الإمكان المذكور وتبقى إمكانات الاستكمالات العقلية فإن عاد إلى الدنيا كالأنبياء والأولياء لو عادوا إلى الدنيا بعد موتهم أمكن أن تحصل صورة أخرى عقلية من ناحية المادة والأفعال المتعلقة بها ولو لم يعد فليس له إلا ما كسب من الكمال والصعود في مدارجه والسير في صراطه، هذا.

ومن المعلوم أن هذا ليس قسراً دائماً ولو كان مجرد حرمان موجود عن كماله الممكن له بواسطة عمل عوامل وتأثير علل مؤثرة قسراً دائماً لكان أكثر حوادث هذا العالم الذي هو دار التزاحم، وموطن التضاد أو جميعها قسراً دائماً، فجميع أجزاء هذا العالم الطبيعي مؤثرة في الجميع، وإنما القسر الدائم أن يجعل في غريزة نوع من الأنواع اقتضاء كمال من الكمالات أو استعداد ثم لا يظهر أثر ذلك دائماً إما لأمر في داخل ذاته أو لأمرٍ من خارج ذاته متوجه إلى إبطاله بحسب الغريزة، فيكون تغريز النوع المقتضي أو

المستعد للكمال تغريزاً باطلاً وتجبيلاً هباءً لغواً فافهم ذلك، وكذا لو فرضنا إنساناً تغيرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير فإنما هي صورةٌ على صورة فهو إنسانٌ خنزير أو إنسان قرد، لا إنسان بطلت إنسانيته، وحلت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها، فالإنسان إذا كسب صورة من صور الملكات تصورت نفسه بها ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز على حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت، وقد مرّ أن النفس الإنسانية في أول حدوثها على السذاجة يمكن أن تتنوّع بصورةٍ خاصّة تخصّصها بعد الإبهام وتقيدها بعد الإطلاق والقبول فالممسوخ من الإنسان، إنسانٌ ممسوخ لا أنه ممسوخ فاقد للإنسانية هذا، ونحن نقرأ في المنشورات اليومية من أخبار المجامع العلمية بأوروبا وأمريكا ما يؤخذ جواز الحياة بعد الموت، وتبدّل صورة الإنسان بصورة المسوخ، وإن لم نتكل في هذه المباحث على أمثال هذه الأخبار، لكن من الواجب على الباحثين من المحصلين أن لا ينسوا اليوم ما يتلونه بالأمس.

توهم:

فإن قلت: فعلى هذا فلا مانع من القول بالتناسخ.

جوابه:

قلت: كلا فإن التناسخ وهو تعلّق النفس المستكملة بنوع كمالها بعد مفارقتها البدن ببدنٍ آخر محال، فإن هذا البدن إن كان ذا نفس استلزم التناسخ تعلّق نفسين ببدن واحد وهو وحدة الكثير، وكثرة الواحد، وإن لم يكن ذا نفس استلزم رجوع ما بالفعل إلى القوة، كرجوع الشيخ إلى الصبا، وكذلك يستحيل تعلّق نفس إنساني مستكملة مفارقة ببدن نباتي أو حيواني بما مرّ من البيان^(١).



(١) انظر الميزان المجلد ١ ص ٢٠٤.

العذاب والخلود في نشأة الآخرة

١ - تحرير محل النزاع وإثبات خلود العذاب

مسألة انقطاع العذاب والخلود مما اختلف فيه أنظار الباحثين من حيث النظر العقلي ومن جهة الظواهر اللفظية.

والذي يمكن أن يقال: أما من جهة الظواهر فالكتاب نصّ في الخلود، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ الآية، والسنة من طرق أئمة أهل البيت مستفيضة فيه، وقد ورد من غير طريقهم أخبار في الانقطاع ونفي الخلود، وهي مطروحة بمخالفة الكتاب.

وأما من جهة العقل فإن الاستدلال على خصوصيات ما جاء به الشرع في المعاد بالمقدمات الكلية العقلية غير مقدور لنا لأن العقل لا ينال إلا الجزئيات، والسبيل فيه تصديق ما جاء به النبي الصادق من طريق الوحي للبرهان على صدقه.

وأما النعمة والعذاب العقليان الطارئان على النفس من جهة تجرّدها وتخلّقهما بأخلاق وملكات فاضلة أو رديئة أو اكتسائهما وتلبسهما بأحوال حسنة جميلة أو قبيحة فقد عرفت أن هذه الأحوال والملكات تظهر للنفس بما لها من صورة القبح أو الحسن فتتعم بما هي حسنة منها إن كانت ذاتها سعيدة وتعذب بما هي قبيحة مشوهة منها، سواء كانت ذاتها سعيدة أو شقية.

وإن ما كانت من هذه الصور صوراً غير راسخة للنفس وغير ملائمة لذاتها فإنها ستزول لأن القسر لا يكون دائماً ولا أكثرياً، وهذه النفس هي النفس السعيدة ذاتاً وعليها هيئات شقية رديئة ممكنة الزوال عنها كالنفس المؤمنة المجرمة، وهذا كله ظاهر.

وأما الهيئات الرديئة التي رسخت في النفس حتى صارت صوراً أو كالصور الجديدة تعطي للشئ نوعية جديدة كالإنسان البخيل الذي صار البخل صورة لإنسانيته كما صار النطق لحيوانيته الصائرة به نوعاً جديداً تحت الحيوان فالإنسان البخيل أيضاً نوع جديد تحت الإنسان، فمن المعلوم أن هذا النوع نوعٌ مجرد في نفسه دائمى الوجود وجميع ما كان يصدر عنه بالقسر حال عدم الرسوخ فيعذب به ويذوق وبال أمره فهي تصدر عن هذا النوع بإذن الله من غير قسر إلا أنها لما كانت صادرة عن نوعيته من غير قسر فهي دائمة من غير زوال بخلاف ما لو كانت حاصلة بالقسر، ومثل هذا الإنسان المعذب بلوازم ملكاته من وجه مثل من ابتلى بمرض الما ليخوليا أو الكابوس المستمر فإنه لا يزال يصدر عن قوة تخيله صور هائلة أو مشوهة يعذب بها وهو نفسه هو الذي يوجدها من غير قسر قاسر ولو لم تكن ملائمة لطبعه المريض ما أوجدها فهو وإن لم يكن متألماً من حيث انتهاء الصدور إليه نفسه لكنه معذب بها من حيث إن العذاب ما يفرّ منه الإنسان إذا لم يتل به بعد ويحب التخلص عنه إذا ابتلى به وهذا الحد يصدق على الأمور المشوهة والصور غير الجميلة التي تستقبل الإنسان الشقي في دار آخرته، فقد بان أن العذاب خالد غير منقطع عن الإنسان الشقي الذي لذاته شقوة لازمة.

٢ - إبطال جملة من الإشكالات:

وقد استشكل ههنا بإشكالات واضحة السقوط بينة الفساد: مثل أن الله سبحانه ذو رحمة واسعة غير متناهية فكيف يسع رحمته أن يخلق من مصيره إلى عذاب خالد لا يقوم له شيء؟

ومثل أن العذاب إنما يكون عذاباً إذا لم يلائم الطبع فيكون قسراً ولا معنى للقسر الدائم فكيف يصح وجود عذاب دائم؟

ومثل أن العبد لم يذنب إلا ذنباً منقطع الآخر فكيف يجازى بعذاب دائم؟ ومثل أن أهل الشقاء لا يقصر خدمتهم لنظام التكوين عن خدمات أهل السعادة ولولا هم لم يتحقق سعادة لسعيد فما هو الموجب لوقوعهم في عذاب مخلّد؟ ومثل أن العذاب للمتخلف عن أوامر الله ونواهيه انتقام ولا

يكون الانتقام إلا لجبر النقص الذي أورده العاصي الظالم على المنتقم
المقتدر، ولا يجوز ذلك على الله تعالى فهو الغني المطلق فكيف يجوز منه
العذاب وخاصةً العذاب المخلد؟

فهذه وأمثالها وجوه من الإشكال أوردوها على خلود العذاب وعدم
انقطاعه. وأنت بالإحاطة بما بيناه من معنى خلود العذاب تعرف أنها ساقطة
من رأس، فإن العذاب الخالد أثر وخاصةً لصورة الشقاء التي لزمَت الإنسان
الشقي فتصوّر ذاته بها بعد تمامية الاستعداد الشديد الذي حصل في ذاته
القابلة لها بواسطة الأحوال العارضة لها المنتهية إلى اختياره، واشتداد
الاستعداد التام هو الذي يوجب في جميع الحوادث إفاضة الصورة المناسبة
لسنخ الاستعداد، فكما لا يجوز السؤال عن علّة تحقق الأفعال الإنسانية بعد
ورود الصورة الإنسانية على المادة لوجود العلّة التي هي الصورة الإنسانية
كذلك لا معنى للسؤال عن لمية ترتب آثار الشقاء اللازم، ومنها العذاب
المخلد بعد تحقق صورة الشقاء اللازم، المنتهية إلى الاختيار فإنها آثارها
وخواصها فبطلت السؤالات جميعاً، فهذا هو الجواب الإجمالي عنها.

وأما تفصيلاً: فالجواب عن الأوّل: أن الرحمة فيه تعالى ليس بمعنى
رقة القلب والإشفاق والتأثر الباطني فإنها تستلزم المادة - تعالى عن ذلك -
بل معناها العطية والإفاضة لما يناسب الاستعداد التام الحاصل في القابل،
فإن المستعد بالاستعداد التام الشديد يحب ما يستعد له ويطلبه ويسأله بلسان
استعداده فيفاض عليه ما يطلبه ويسأله، والرحمة رحمتان: رحمة عامة،
وهي إعطاء ما يستعد له الشيء ويشتاقه في صراط الوجود والكيونة، ورحمة
خاصة، وهي إعطاء ما يستعد الشيء في صراط الهداية إلى التوحيد وسعادة
القرب وإعطاء صورة الشقاء اللازم الذي أثره العذاب الدائم للإنسان
المستعد له باستعداده الشديد لا ينافي الرحمة العامة بل هو منها، وأما
الرحمة الخاصّة فلا معنى لشمولها لمن هو خارج عن صراطها، فقول
القائل: إن العذاب الدائم ينافي الرحمة إن أراد به الرحمة العامة فليس
كذلك بل هو من الرحمة العامة، وإن أراد به الرحمة الخاصة فليس كذلك
لكونه ليس مورداً لها، على أن الإشكال لو تم لجري في العذاب المنقطع
أيضاً حتى أنواع العذاب الدنيوي، وهو ظاهر.

والجواب عن الثاني:

أنه ينبغي أن يحزر معنى عدم ملاءمة الطبع فإنه تارة بمعنى عدم السخية بين الموضوع والأثر الموجود عنده وهو الفعل القسري الذي يصدر عن قسر القاسر ويقابله الأثر الملائم الذي يصدر عن طبع الشيء إذا اقترن به آفات ثم رسخت فيه فصارت صورة في الشيء وعاد الشيء يطلبه بهذا الوجود وهو عين الحال لا يحبه كما مثلنا فيه من مثال الماخيوليائي فهذه الآثار ملائمة لذاته من حيث ظهورها وصدورها عن طبعه الشقي الخبيث، والآثار الصادرة عن الطباع ملائمة، وهي بعينها عذاب لصدق حد العذاب عليها ليكون الشيء لا يرتضيها فهي غير مرضية من حيث الذوق والوجدان في عين كونها مرضية من حيث الصدور.

والجواب عن الثالث:

أن العذاب في الحقيقة ترتب أثر غير مرضي على موضوعه الثابت حقيقةً وهو صورة الشقاء فهذا الأثر معلول الصورة الحاصلة بعد تحقق علل معدة، وهي المخالفات المحدودة، وليس معلولاً لتلك العلل المعدة المحدودة حتى يلزم تأثير المتناهي أثراً غير متناه وهو محال، ونظيره أن عللاً معدة ومقربات معدودة محدودة أوجبت أن تتصور المادة بالصورة الإنسانية فيصير إنساناً يصدر عنه آثار الإنسانية المعلولة للصورة المذكورة، ولا معنى لأن يسأل ويقال: إن الآثار الإنسانية الصادرة عن الإنسان بعد الموت صدوراً دائماً سرمدياً لحصول معدات محدودة مقطوعة الأمر للمادة فكيف صارت مجموع منقطع الآخر من العلل سبباً لصدور الآثار المذكورة وبقيائها مع الإنسان دائماً لأن علتها الفاعلة - وهي الصورة الإنسانية - موجودة معها دائماً على الفرض، فكما لا معنى لهذا السؤال لا معنى لذلك أيضاً.

والجواب عن الرابع:

أن الخدمة والعبودية أيضاً مثل الرحمة على قسمين: عبودية عامة، وهو الخضوع والانفعال الوجودي عن مبدأ الوجود، وعبودية خاصة وهو الخضوع والانقياد في صراط الهداية إلى التوحيد ولكل من القسمين جزاءً

يناسبه وأثر يترتب عليه ويخصّه من الرحمة، فالعبودية العامة في نظام التكوين جزاؤه الرحمة العامة، والنعمة الدائمة والعذاب الدائم كلاهما من الرحمة العامة، والعبودية الخاصة جزاؤه الرحمة الخاصّة وهي النعمة والجنة وهو ظاهر، على أن هذا الإشكال لو تم لورد في مورد العذاب المنقطع الأخرى بل الدنيوي أيضاً.

والجواب عن الخامس:

أن العذاب الدائم مستند إلى صورة الشقاء الذي في الإنسان كما عرفت، وإلى الله سبحانه بالمعنى الذي يقال في كل موجود أنه مستند إليه تعالى لا بمعنى الانتقام وتشقي الصدر المستحيل عليه تعالى، نعم الانتقام بمعنى الجزاء الشاق والأثر السيئ الذي يجزي به المولى عبده في مقابل تعذيبه عن طور العبودية، وخروجه عن ساحة الانقياد إلى عرصة التمرّد والمخالفة مما يصدق فيه تعالى لكن لا يستلزم كون العذاب انتقاماً بهذا المعنى إشكالاً البتة.

على أن هذا الإشكال أيضاً لو تم لورد في مورد العذاب المؤقت المنقطع في الآخرة بل في الدنيا أيضاً^(١).



(١) انظر المجلد ١ ص ٤١١.

العفو والمغفرة في القرآن

العفو على ما ذكره الراغب - وهو المعنى المتحصل من موارد استعماله - هو القصد لتناول الشيء، يقال: عفاه واعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده، وعفت الريح الدار قصبتها متناولة آثارها. انتهى. وكأن قولهم: عفت الدار إذا بليت مبني على عناية لطيفة وهي أن الدار كأنها قصدت آثار نفسها وظواهر زينتها فأخذته فغابت عن أعين الناظرين وبهذه العناية ينسب العفو إليه تعالى كأنه تعالى يعنى بالعبد فيأخذ ما عنده من الذنب ويتركه بلا ذنب.

ومن هنا يظهر أن المغفرة - وهو الستر - متفرع عليه بحسب الاعتبار فإن الشيء كالذنب مثلاً يؤخذ ويتناول أولاً ثم يستر عليه فلا يظهر ذنب المذنب لا عند نفسه ولا عند غيره، قال تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾^(١) وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٢).

وقد تبين بذلك أن العفو والمغفرة وإن كانا مختلفين متفرعاً أحدهما على الآخر بحسب العناية الذهنية لكنهما بحسب المصداق واحد، وأن معناه ليس من المعاني المختصة به تعالى بل يصح إطلاقها على غيره تعالى بما لهما من المنعنى كما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوكَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي يَكُونُ عُقْدَةُ الْبَيْتِ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

الآية، فأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم فلا يرتب الأثر على معصيتهم من المؤاخذه والعتاب والإعراض ونحو ذلك، وأن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم - وهو تعالى فاعله لا محالة - فيما يرجع إليه من آثار الذنب.

وقد تبين أيضاً أن معنى العفو والمغفرة يمكن أن يتعلق بالآثار التكوينية والتشريعية والدينية والأخروية جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١)، والآية شاملة للآثار والعواقب الدنيوية قطعاً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) على ظاهر معناه، وكذا قول آدم وزوجته فيما حكاها الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) بناء على أن ظلمهما كان معصية لنهي إرشادي لا مولوي.

والآيات الكثيرة القرآنية دالة على أن القرب والزلفى من الله، والتنعيم بنعم الجنة يتوقف على سبق المغفرة الإلهية وإزالة رين الشرك والذنوب بتوبة ونحوها كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(٥).

وبالجملة العفو والمغفرة من قبيل إزالة المانع ورفع المنافي المضاد، وقد عد الله سبحانه الإيمان والدار الآخرة حياة، وآثار الإيمان وأفعال أهل الآخرة وسيرهم الحيوي نوراً، كما قال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا نَذَارَ الْآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٧)، فالشرك موت والمعاصي ظلمات، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٤) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٥) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

فَوَقَّهٖ سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدَ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ^(١)، فالمغفرة إزالة الموت والظلمة، وإنما تكون بحياة
وهو الإيمان، ونور وهو الرحمة الإلهية.

فالكافر لا حياة له ولا نور، والمؤمن المغفور له له حياة ونور،
والمؤمن إذا كان معه سيئات حي لم يتم له نوره وإنما يتم بالمغفرة، قال
تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِمَنُ بِهِنَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ
لَنَا﴾^(٢).

فظهر من جمع ما تقدم أن مصداق العفو والمغفرة إذا نسب إليه تعالى
في الأمور التكوينية كان إزالة المانع بإيراد سبب يدفعه، وفي الأمور
التشريعية إزالة السبب المانع عن الإرفاق ونحوه، وفي مورد السعادة
والشقاوة إزالة المانع عن السعادة.

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

الفهرس

٥	المقدمة
٧	الشفاعة في القرآن الكريم
١١	ما هي الشفاعة
١٦	اشكالات الشفاعة
٢٣	فيمن تجري الشفاعة
٢٦	من تقع منه الشفاعة
٢٨	بماذا تتعلق الشفاعة
٢٨	متى تنفع الشفاعة
٢٩	الشفاعة في روايات أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٣٨	فلسفة الشفاعة

أحكام الأعمال والجزاء عليها

٤٣	الإحباط
٤٦	نتيجة الحكم الأول
٤٧	توهم
٥٠	شبهة
٥١	جواب عن اشكال
٥٣	تجسم الأعمال
٥٣	الارتباط مع الحوادث الخارجية
٥٩	الأعمال حقيقة للسعادة والشفاء

٦٢ الحسنيات تختلف عن السيئات في تطابقها مع العقل
٦٣ حبط الأعمال وآثاره
٦٩ تجرد النفس في القرآن
٧٥ فلسفة تجرد النفس
٧٥ حقيقة تجرد النفس
٧٦ أقوال الناكرين وردها
٧٩ نتيجة البحث
٨٠ إشكال آخر وجوابه
٨٣ نشأة البرزخ في القرآن
٨٦ البرزخ في ضوء الروايات

المسخ وإحياء الموتى من نظرة فلسفية

٩١ إثبات المعجزة
٩٢ إشكال وجواب
٩٤ شبهة وجوابها

العذاب والخلود في نشأة الآخرة

٩٧ تحرير محل النزاع وإثبات خلود العذاب
٩٨ ابطال جملة من الاشكالات
١٠٢ العفو والمغفرة في القرآن